

زهرة العمر

توفيق الحكيم

الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه

الاسكندرية

زهـــرة العمر



زهرة العمر

توفيق الحكيـــم



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الابداعية)

زهــرة العمــر
توفيق الحكيم

الغلاف
للفنان جمال قطب

الإشراف الفني:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سـمير سـرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان



مقدمة

هذه رسائل حقيقية كتبت بالفرنسية فى ذلك العهد الذى يسمونه « زهرة العمر » . وهى موجهة الى مسيو « اندريه . . . » الذى جاء وصفه فى كتابى « عصفور من الشرق » . وقد بدأنا نتراسل بعد مغادرته « باريس » للعمل فى مصانع « ليل » بشمال فرنسا . ولبثنا على ذلك إلى ما بعد عودتى الى مصر والتحاقى بالسلك القضائى . ثم انقطعت بيننا الرسائل والأخبار . وانتهى كل شيء . وجرفنا تيار الحياة ، كل فى واديه . . . فلم نلتق بعد ذلك الا فى عام ١٩٣٦ ، إذ سافرت لتمضية الصيف فى فرنسا . . . وكنت قد تركت القضاء ، وصرت

مديرا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف ، ونشرت فى الأدب عدة كتب ... فوجدت « اندريه » قد أصبح رجلا مهماً ذا مركز مستقر فى الصناعة الفرنسية . ووجدت زوجته « جرمين » على عهدى بها ، لم ينل الزمن كثيرا من سالف جمالها . . ولم أر للأسف طفلهما الصغير « جانو » . فقد غدا بالطبع شاباً يسعى مع الطلاب فى الحى اللاتينى ، ويشاركهم تلك الحياة الصحبة النشيطة الهوجاء .

وتحدثنا مليا فيما فعلته الحياة بنا . . . وعند ذاك قادنى الصديقان من يدى إلى مكتبة الدار برياشها التى لمست فيها حسن ذوق « جرمين » المعروف . وأشارا بزهو من خلف الزجاج الى نسخة فاخرة التجليد من كتاب لى ترجم وقتئذ الى الفرنسية ونشر فى باريس مقرظا بقلم كاتب شهير من أعضاء الأكاديمية . وقالا لى فخورين : « هذه ثمرة جهادك الذى كنا من شهوده . . . ! »

ثم جعلنا نتذاكر الماضى ، ونحن نتناول الشاى .

فنهض أندريه بهدوء وصمت ، واختفى لحظة ، ثم عاد إلينا يحمل صندوقا صغيرا وهو يقول باسما : « لم يكن من السهل ان ننساك أو ننسى تلك الأيام ، وهذه رسائلك عندنا نلمح فيها طيفك ماثلا أمامنا . . أليس كذلك يا جرمين ؟ . . . » فمددت يدى الى الصندوق على الرغم منى ، واختطفت بحركة غريزية احدى الرسائل . وطفقت أقرأ وأقرأ . . . حتى نسيت نفسى ومن حولى والشاى الذى أمامى . . . ولم أفطن الى تنبيه الصديق وزوجه . . ولم أر سوى شىء واحد . هذا شبابى حقا . . . قد انتفض ماثلا لعينى . . كيف أتركه لكما ؟ . . وتنازعنا الرسائل . فحسمت جرمين النزاع آخر الأمر بقولها : إنا نثق بوعدك وكلمتك . . . خذ رسائلك اقرأها كما شئت فى شهر أو شهرين على أن تردها الينا بعد ذلك . فوعدت . وحملت رسائلى برفق وحرص وحنان كأنى أحمل الرماد المتخلف عن « زهرة العمر » الذابلة . . .

* * *

وأنستني شئون ذلك الصيف كل شيء . فلقد شغلت بمن قابلت من الأصدقاء في جبال الالب ، وبما شاهدت من مظاهر الفن . . في سالزبورج ، عن التفكير في هذه الرسائل ، فلم افتحها إلا بعد عودتي الى مصر . فكنت كلما خلوت الى نفسي اطالع رسالة اورسالتين وأنا ابتسم ، ثم أطوى ما قرأت وأنا أفكر فيما كان وماهو كائن ... لقد أصبحت هذه الرسائل لازمة لي في وحدتي . ومرت الشهور في أثر الشهور . ولم أنس وعدى وكلمتي . . ولكن ماذا أصنع ؟ عندئذ خطر لي أن أنقل هذه الرسائل الى العربية وأحفظها لنفسي . ولم أر بأساً بعد ذلك من رد الأصل الفرنسي . فأخذت في نقلها ببطء كلما وجدت من الوقت فراغاً . ولم أردها الى صاحبها إلا عندما سافرت الى فرنسا لتمضية الصيف عام ١٩٣٨ .

وهكذا بقيت عندى الصورة العربية لهـذه الرسائل اجيل فيها النظر من حين الى حـــين . . . وأنا أحرص عليها وأضن بهـا ولا أرضى أن تقع عليهـــا عين غير عينى . . . فهذا شيء لى . . وهى جزء من . . . وقطعة من حياتى . . . هى زهرة عمرى . . .

* * *

واندلعت نيران الحرب الأخيرة . . . وانهـارت رنسا . فتذكرت الصغـير « جانو » . . . لا شك عندى فى أنه اشترك فى هـذه الحرب . . . ومن يدرى أهو فى القتـلى أم فى الاسرى أم فى الجرحى ؟ . . انى لم أزل اتخيـله طفـلا فى الرابعـة يلعب أمامى فى المطبخ بمنزل جدته فى « كـوربفوا » من ضواحى باريس . . . وانا جالس الى المائدة أتناول فطورى واقرأ كـتـاب الجمهورية لأفلاطون . . . وهو يصيح بصوته الملائكى

الصغير رافعا سيفه الزائف ومصوبا مدفعه الصفيح نحو أعداء وهميين من « البوش » الالمان ... آه ... لقد دار الزمان . . وأصبح « جانو » شاباً قويا وقد حارب الألمان بالفعل . . . ويا لها من حرب !! .

أما صديق اندريه وزوجته جرمين فاين هما الآن ؟ أهما بخير ؟ أم هما على ولدهما « جانو » متفجعان ؟ ! . اللهم لا تفجعهما فى ولدهما وهو فى زهرة عمره . فقد كانا رفيقى شبابى ، والإناء الذى أحاط بزهرة عمرى . . .

* * *

واليوم وقد كادت تذبل زهرة العمر بعد ان جاوزنا الأربعين . اليوم بعد ان اعتزلت وظائف الحكومة ، ونزلت عن زخارف المجتمع ، وانقطعت لأهيم كا أشاء فى هيكل « أبولون » . . . مكرسا بقية حياتى للأدب والفن . . . . فانى أرجع بصرى القهقرى لأرى أيام

الكد فى سبيل التكوين الفنى . . . ولقد أدهشنى حقا ما رأيت فى رسائلى هذه : لطالما قاومت وكافحت فى سبيل التجرد والتحرر من كل ما يشغلنى عن الفن . . . وها انذا اليوم قد انتصرت . . . نعم ، لقد انتصرت . فأنا الآن للفن وحده . . ولا أرجو إلا ان يكون هو ايضا لى قليلا قبل أن ألفظ النفس الاخير .

وبعد . . . فلقد رضيت اليوم أن أنشر هذه الرسائل ، تذكاراً للصديقين اندريه وجرمين ، وتقديراً لولدهما الشاب الباسل « جانو » ، وايثاراً لقرائى على نفسى . قرائى الخلصاء الذين قد يعنيهم ان يطلعوا على صفحة من حياتى . على ان من واجبى أن اشير إلى انى وجدت مع الاسف أكثر هذه الرسائل غير مؤرخ . ولم يكن فى مقدورى ترتيبها على حسب التواريخ ، ولا حتى على حسب الحوادث ، ترتيبا دقيقاً . ولعل ترتيبى هذا هو

أقربها إلى الحقيقة والمنطق . فاذا بدا شيء من الاضطراب في تسلسل الوقائع أو شيء من التكرار في بعض التفاصيل فان ذلك راجع ولا ريب الى طبيعة الرسائل في ذاتها ، وقد كانت رسائل خاصة لم يخطر قط على بال أحد انها قد تقدم للنشر يوما . والرسائل الحقيقية ليست عملا مؤلفاً تأليفاً حتى يستباح فيها التنقيح والحذف والتهذيب . فان مزيتها الوحيدة هي التشجع على نشرها بخيرها وشرها . واني — توخياً للصدق — لم أحذف حتى ما كان يحسن حذفه من عبارات أو فقرات أو حوادث قد يعتبر نشرها ماسا بشخص المرسل أو المرسل إليه . .

ش . ١ .

باريس — شارع بلبورنى . .

عزيزى اندريه

صدقت فراستك. الخيال قد أضاعنى يا اندريه . أنا شخص شقى . وليس الشقاء هو البكاء . وليست السعادة هى الضحك . فأنا أضحك طول النهار . لأنى لا أريد أن أموت غارقاً فى دموعى. انا شخص ضائع مهزوم . فى كل شىء . وقد كان الحب آخر ميدان دحرت فيه . واذا كنت تسمع من فمى أحيانا اناشيد القوة والبطولة فاعلم انى أصنع ذلك تشجيعاً لنفسى ، كمن يغنى فى الظلام طرداً للفزع .

ها أنت ذا اليوم ترانى اكتب إليك عن القوة

والشخص القوى ؛ وانا بهـذا أحاول أن أوهم نفسى أنى قوى . انى أشعر براحـة وعزاء إذ اتحدث فى وحدتى عن القوة. ويخيل الى لحظة انى ذلك الشخص الذى عناه إبسن بقوله : « الرجل القوى هو الرجل الوحيد » ! . . كفى كلاما عن نفسى . انها لا تستحق ان نتحدث عنهـا اكـثر من ذلك . أحـدثك الآن عن احوالك انت وعن خطـابك الذى صببت على فيه كل لعناتك . قبـل ذلك اقول لك انى مغتبط لرضاك عن عملك الجديد بمصنع «ليل» . اما اكفهرار الجو المستمر فى هذه المدينة الشمالية فهو خير على كل حال من اكفهرار وجه الحياة. اخبرك ان آخر مرة رأيت فيها جرمين كان مساء الأربعاء الماضى حيث تناولنا معاً العشاء بصحبة جانو الصغير . وسأراها يوم الأحد القـادم . فهى لا تستطيع مقـابلتى قبل ذلك اليوم الذى تعطل فيه من مصنـع كوربفوا . وليس بى

حاجة الى ان أؤكد لك شوقها الشديد إليك . هنيئا لك حب زوجك وولدك . النقود وصلت . للثمالة من الفرنكات بالتمام . اشكرك وارجو ان لا تستدين من غيري ولا مني الا للضرورة. فاني أعرف فيك الاسراف والتهور أحيانا . وحب مغازلة النساء الجميلات. يجب ان ترعوى والا أخبرت جرمين بكل شيء . . . ؟

باريس — شارع بلبورنى . . .

عزيزى اندريه

اشكرلك خطابك . وآسف لما سببه لك خطابى من حزن لأجلى . ما كان لى الحق فى ان أضيف ما بى الى ما بك . فهذا حمل ثقيل لا أرضاه لك . انى أؤنب نفسى الآن . لقد ألجأها الضعف إليك للتوكؤ عليك . وفاتها ان فى ذلك ازعاجا لك . قاتل الله الضعف . ومع ذلك ، . . . لولا هذا الضعف الانسانى ما وجدت العواطف الانسانية الجميلة التى تنتج احيانا الأعمال الانسانية العظيمة . ان الضعف هو ايضا مظهر جمال فى بعض الاحيان

لا يجب ان ننسى ذلك . انه جمال الانسان الذى يمتاز به عن آله قوى لا رقة فيه ولا شعور . لماذا نعد دائما الضعف البشرى نقيصة ؟ ما دمنا قد وصمنا به إلى الأبد فلنحترمه أحيانا ولنستثمره ولنحوله الى فضيلة من فضائل البشر . بغير هذا فان الحياة لن تحتمل . أتراني أعزى نفسي يا اندريه بهذا الهراء من الكلام ! . . أتراني أقلب « الحقائق » كي أرى الدنيا ملآى بالحسنات والفضائل ، خليقة باحترامنا جديرة بتحملنا الآلام فى سبيل المكث فيها ؟ لاتضحك ولا تسخر ولا تتهمني بالحمق . فانك قد تحترمني قليلا وتدهش لقوة احتمالى، اذا عرفت مبلغ ما تجمع على رأسى من شقاء . ومع ذلك ما زلت احاول انتزاع ابتسامة من شفتى الحياة . لا أريد ان احدثك عن نفسى أكثر من ذلك . لكن . . . فلأحدثك قليلا لتعلم انك بالقياس الى أسعد

المخلوقات طرا . فانت الآن رجل ناجح فى حياتك تجد من يقدر عملك وجهدك وينقدك عليه أجراً معقولا ، والمستقبل أمامك جلى كالنجم اللامع فى السماء الصافية . وقد قلت لى ان مصانع « ليل » تتخاطفك ، وانك ترقى درجات العمل الأولى سريعا. ثم انت فوق ذلك رجل محاط بالحب والعطف من زوجك وولدك . انت محب محبوب . ومن تحب تحرص عليك وترى فيك المثل الأعلى ، لا للرجولة وحدها والبطولة ومكارم الاخلاق بل للجمال ايضا. لكم أدهشتنى جرمين ذات يوم وأنا أريها صورة « رودولف فالنتينو » فى إحدى الصحف قائلا لها : « إليك صورة اجمل رجل فى العالم » فقد قالت للفور : « اندريه أجمل منه . ألا توافقنى على ان اندريه أجمل منه ؟ » ماذا تريد اكثر من ذلك ؟ وماذا يريد انسان اكثر من ذلك ؟ انك لا تعرف

الشقاء • اما انا فاعرفه • انه فجيعة الانسان فى آماله . نحن • • • إنما نعيش داخل آمالنا • فاذا اندكت فنحن كالنمل الشارد فى الشتاء العاصف • لا تنظر الى بعين سخريتك يا اندريه . ولا تظن انى اعنى الحب . فلو انه هو الذى انهدم وحده عندى لما حزنت كثيرا . ولكن كل شيء انهدم يا اندريه . لم يعد لأيامى مذاق • فهى كالماء القراح أجرعه على غير ظمأ • والمستقبل امامى محاط بالضباب ؛ يخيل الى انى هويت قبل الأوان كالثمرة التى تسقط من الفرع قبل النضوج . أمامى برقية من أبى المسكين يقول : « أبرق لنا فى حالة نجاحك » . كلمة النجاح غريبة علي اذنى الآن أأنا استطيع ان انجح فى شيء؟ ان اسمى كما تعلم مقيد منذ زمن بجدول المحامين فى بلادى . انى فى عرف القانون محام . ولكن اى محام؟! لقد كانت فجيعة لأبى المسكين أيام ان كان يسمع

ويرى انى أنسى صفتى كمحام ، وانحشر فى زمرة الممثلين ، أو أولئك الذين يسمونهم عندنا « المشخصاتيه » . والحق انهم فى مصر ليسوا بعد من الطوائف المحترمة . لقد كان ملحن رواياتى (كامل الخلعى) يجلس معى على قارعة الطريق « يدندن » ويلحن وهو عارى القدمين إلا من « قبقاب » خشبى . . . تلك كانت بدايتى الفنية والأدبية . . . فى عين الوقت الذى كان غيرى يبدأ حياته الأدبية بالكتابة السياسية ، فيظفر سريعا بالشهرة والاحترام . ولو انى فعلت ذلك لرضى عنى أهلى بعض الرضا . فالفرق شاسع فى مصر بين خدمة رجال السياسة وخدمة رجال « التشخيص » ! وها أنذا لم أظفر بشهرة ولا ذكر بينما لمعت أسماء أولئك الذين اختاروا الطريق الآخر المحترم . . . فسهل عليهم ايضا بعدئذ كما رأيت ان ينتقلوا منه

الى الأدب ، محتفظين بأثواب التجلة ومظاهر التقدير . أما أنا الذى اخترت الفن من البداية صرفاً صريحاً فلا استطيع ان انتقل الى شيء . . . غير الانحطاط الاجتماعى . ولقد خشى والدى المتوجع ان يجرفنى التيار عن حياة القضاء التى عاشها بشرف ، فأشار عليه المخلصون ان يقصينى عن مصر فترة من الزمان . . . فأرسلنى كما ترى الى هنا لعلى أسلو الفن وانصرف الى ما يتمناه لى من حياة قانونية قضائية محترمة . فماذا انا قائل له الآن ؟ وبماذا أرد على برقيته ؟؟ . . ثم أمامى خطاب ممن احببت وأوهمتنى بنعيم دام اسبوعين ، تكشف لى فيه عن المهزلة ، ولم ترفق فتترك لى حتى ذكرى تلك الأيام القليلة سليمة جميلة . لقد شاءت ان تسترد كل شيء حتى الأوهام والأحلام . فجردتنى منها بعبارة واحدة : « أتعنى انى ما عشت قط هذين

الأسبوعين » . يا الهي الى هذا الحد ! وها هي ذى تغنى اليوم لرجوع كل ود بينها وبين حبيبها الحقيق. أسمع غناءها من نافذة حجرتى فأضحك . . . لكن أى نوع من الضحك ! ثم أمامى قصاصات من نقد صحف مصر لرواياتى التى تمثل فى القاهرة ، فاذا انا موضع السخرية. ودراساتى التى لا تؤدى إلى نتائج. وشراهتى فى المعرفة التى تسبق قدرتى الذهنية وقوتى الجثمانية ووقتى المادى . كل شيء حولى يهدمنى هدما . . . ؟

باريس ـ شارع بلبور ق . . .

عزيزى اندريه

معذرة لأبطائى عليك فى الرد . فلقد اصبت بيرد وسعال أقعدنى فى الفراش أياما . وأنتهز هذه الفرصة لأبلغك شكرى الخالص لجرمين على قلقها وعنايتها . . . كما اخبرك أيضا انها دعتنى بعد ذلك الى وليمة عشاء بمسكنها حيث نصبت المائدة الى جوار المدفأة . لن أنسى مطلقا ذلك الحساء اللذيذ (كريم فرميسيل) . اهنئك باستكشافى فى جرمين ، فضلا عن ذكائها وأدبها وخلقها ، ذلك الفن الجميل المفيد : فن الطهى . . . ثق انها طاهية من الطبقة الاولى .

انها تستحق « الكوردون بلو » هل ذقت فطير الأرز من صنعها ؟ وا أسفاه ! كان بى ما يزال أثر المرض فلم أهجم على هذا اللون الا هجوما رفيقا على الرغم منى . اكرر شكرى لجرمين على هذه الوليمة وعلى تلك الغلالة الحريرية التى اعارتنى اياها لأجعلها حول عنقى خوف البرد جانو يقبلك وقد قبلته عنك ... ؟

باريس ـ شارع بلبور ق . . .

عزيزى اندريه

لم اكتب اليك ولا أدرى لماذا لم تكتب الى انت. لعلك كنت تنتظر ردى . وردى لم أجد له قيمة ولا فائدة لان كتابك الأخير لم يكن فيه ما يوجب الرد . أما جرمين فهى على ما تروم. وكذلك جانو . وقد قابلت جرمين منذ ثلاثة ايام . وليس عندى ما أقوله . أما أنت فقد اثبت لى ان مقامك فى ليل بعيدا عمن تحب قد كشف عن رقة فى مشاعرك لا اعهدك بها خليقا . اخشى أن أقول ان قدمك كادت تنزلق الى شاطىء الخيال الذى كنت...

تسخر منه . لا تهزأ قط بالحب والخيال . ها انت ذا تستطيع ان تحدثنى اليوم عنهما اكثر مما استطيع انا . نعم ، لقد كان يخطر لى احيانا ان الحب هو العمود الفقرى للكون . وان الله كى يقيم القيامة وينهى الحياة لن يأمر اسرافيل بنفخ الصور (كما يقولون عندنا) بل سيأمر « الموت » ليهوى بفأسه على «الحب». وبموت الحب فى الأرض ينتهى العالم . تصورت ذلك ذات ليلة وانا فى فراشى اطالع تاريخ المذاهب الاقتصادية. ولقد تركت اوراقها تسقط من يدى لاغرق فى تفكير عميق حول مسألة بعيدة كل البعد عن تاريخ المذاهب الاقتصادية . على انى الآن انقض هذا الخاطر . ويخيل الى ان الحب فى هذا العالم عضو سوف يتمكن العلم الحديث من بتره واستئصاله دون أن تخسر الانسانية شيئا كبيرا. ما رأيك يااندريه ؟ اريد رأيك فى هذا لأن رأيك

ذو قيمة كبرى ، فهو صادر عن منطق طالما انكر سلطان الخيال ! اما انا فقد انكرته أو على الأقل سائر فى طريق انكاره والايمان بالواقع. الدليل: انى ارغم نفسى الآن على الاستعداد للتقدم لامتحان الدكتوراه فى القانون ، ارضاء لأهلى... لاشىء يعوقنى عن النجاح غير طبيعتى التى خلقت للضياع فى الفضاء لا للوقوع فى قيود الدكتوراه وحدود المعارف الجامعية . نفسى قد خلقت لتقرأ ما تريد وقتما تريد ، لتحيط علما بكل شىء وتسعى الى تأمل كل شىء وتستبقى فى الذاكرة ما تشاء وتنسى ما تشاء . اما تتبع دراسة منتظمة لجزء معين بالذات من العلوم يستذكر استذكارا ليستفرغ بعد ذلك استفراغا بين يدى ممتحنين ومحلفين . . !! هنا كل المشكل يا صديقى اندريه . . . ؟

باريس ـ شارع بلبور ق . . .

عزيزى اندريه

وصلتنى رسالتك وأعجبت جدا بتلك الطريقة المدهشة التى جعلتنى اعتقد ، ولمدة خمس ثوان فقط ؛ انى امتلك ثلثمائة فرنك . ولما يمضى الوقت الكافى لشكر الله وشكرك . بل لما يمضى الوقت الكافى للتفكير فى مصدر هذه النقود . لقد أعطيتنى الوقت الكافى لأفرح قليلا . ثم لم تمهلنى وصدمتنى بالواقع : وهو ان تلك الثلثمائة من الفرنكات ليست فقط « غير ملكى » انما هى « طعم » لاستجرار مائتين من جيبى ! واها لك ايها الشيطان ! على انى

غير حاقد عليك ولا ناقم . فحظـك حسن . اذ قبل ورود خطابك كانت نفسي مستعدة لتقبل مثل هذا الخطاب . وتفصيل الأمر انى البارحة قابلت جرمين وتحدثنا فى أمور شتى فهمت من خلالهـا ان قسط ايجار مسكنها سيحل فى منتصف هذا الشهر . ومع ان هذا الأمر لم يكن موضع اهتمام لديها ولا لدى أثناء الحديث . الا انه جعلنى افكر بعد مغادرتها فى مصدر النقود ، وفى حالتك وما يجب فعله إذا اعلنت افلاسـك . ولما كنت أعرف من علم الاقتصاد السياسى ان الضرائب غير المباشرة عند اصحاب المذهب الزراعى تقع غالبا وأخيرا على رأس المالك العقارى : فقد خطر لى انى انا فى هذه المسألة بمثابة المالك العقارى ، بمعنى ان كل افلاس أو كارثة لابد ان تقع ويجب ان تقع على رأسى غالبا وأخيرا . هذا هو سر تقبلى رسالتـك بصدر رحب على غير

العادة . وقد نفذتها أو سأقوم بتنفيذهـا بلا تضجر ولا تبرم . فانا أحب أن تعرف انى لا أثور ولا أعنف الا عند عدم اقتناعى بصواب ابواب الانفاق، اسرافا منك اوجنونا أو اعتمادا على سهولة الاقتراض. وبعد فانى سأرى جرمين مساء الجمعة القادم كى نذهب معاً لمشاهدة رواية جديدة فى مسرح الحى. وارجو منك ان تدع جرمين تفهم ان صلتى بها لا تستمد قوتها من صداقتى لك . انما هى صداقة أخرى مستقلة تقوم على احترامى لشخصها وتقديرى لذكائها . فانا لا أحب لجرمين أن تفهم انى موفد من قبلك لأخرجها للنزهة بين آن وآن ، ولا انى أتكلف هذا قضاء لواجب من الواجبات . على انى قد ضحكت كثيرا وأنت تخبرنى فى خطابك انها لن تنسى ذلك التفانى منى فى خدمتها وانها لا تشكو الا امرا واحدا : هو انى لم أحاول قط مغازلتها ! يا لظرف

الباريسيـات ؛ أو كانت تظن انى وأنا الشرق أجرؤ على ذلك فى غيبتك ؟ أفهمهـا أنى سأحاول ذلك مرة فى حضرتك ، لتعلم أنى لست ممن يستهين بجمالها . ومع ذلك فهى لا تجهل أى سرور أجنيه وفائدة لا تقدر ان يتاح لى لقاؤها من حين الى حين . فانك لن تتصور مقدار ما يحدثه جلوسى إليهـا من نتائج فـكرية . انك تعرف مقدار فائدة المرحوم إيفـان لى وفائدة الشاعر البارناسى الهرم ... ها انت ذا ترى ان كل شىء يدفع ثمنه فى هـذا الوجود ، وان ما تحسبه خدمات أقدمها إليهـا لا يعدل ما تؤديه هى الى ، وما تؤديه أنت أيضا ، من فوائد الى شخصيتى وهى فى سبيل تـكوينها . لاتسخر ولا تتهمنى بالاسراف فى الخيال. كلا يا اندريه . غدا تزول الحاجات المـادية ولن يبقى لنـا غير ذلك الربح المعنوى الذى اكتسبه أحدنا بمعرفته الآخر .

وختاما أقول لك ان احوالى التى تريد ان تصغى الى انبائها سوف احدثك عنها فيما بعد . وأما روايتى التى كتبت منها قليلا فقد اهملت شأنها منذ شهور . وقد انتهى رأيى الى استحالة المضى فيها وأنا فى هذه البيئة الأوروبية العاصفة . هذه البيئة الحديثة وما يسود فيها من جو « المودرنزم » يفسد حسن فهمى للأشياء ويحول دون تعرفى حقيقة شخصيتى فى الفن والأدب . أنا أحب « المودرنزم » وأخشى ان أقول لك انى أقلد أساليبه على الرغم منى . وهذا بالذات ما يخيفنى ويدعونى الى التريث حتى تهدأ عاصفة هذا الفن الحديث ونعرف الى أى حد يستطيع أن يثبت الى جانب الاساليب التى اعترف بها التاريخ . لقد شاهدت فى المسارح أخيرا قصصا تمثيلية على طراز النزعة الحديثة مثل قصة au grand large . كما شاهدت قصص ما قبل الحرب

مثل «الماضى» لبورتوريش و «الجدول» لبيير فولف واطلعت على رأى النقاد فى ذلك. أتدرى ماذا فضل النقاد؟ انهم فضلوا قصص (ماقبل موجة المودرنزم) ورأوها هى الخليقة بالبقاء ... ؟

باريس ـ شارع بلبور فى . . .

عزيزى اندريه

لست أدرى أمن سوء حظى أم من حسنه انى أعيش الآن فى اوروبا وسط هـذا الاضطراب الفكرى الذى لم يسبق له مثيل . فهـذه الحرب الكبرى قد جاءت فى الفنون والآداب بهذه الثورة التى يسمونهـا « المودرنزم » فكان لزاما على أن أتأثر بها . ولـكننى فى الوقت ذاته شرقى جاء ليرى ثقافة الغرب من أصولهـا . فأنا موزع الآن ، كما ترى ، بين « الـكلاسيك » و « المودرن » . لا استطيع ان أقول مع الثائرين فليسقط « القديم »

لأن هذا القديم أيضاً جديد عليّ . . . فأنا مع أولئك وهؤلاء . . . إنى أخرج مثلا من متحف اللوفر متحمساً لأعمال « تسيان » و « دافنشى » و « فلاسكز » و« جويا » و« مملنج » و«فان ديك » لأدخل بعد ذلك توآ معرض الخريف أشاهد أحدث لوحات الفن الحديث بألوانها الصارخة « الفاقعة » وخطوطها البسيطة العارية . إن الفكرة المسيطرة على الفن الحديث هى : الفطرة والبساطة . يطلبون فى الفطرة النضارة . ويذهبون فى البساطة إلى حد التركيز . لقد غالوا فى التركيز لدرجة المناداة بفصل عناصر كل فن عن الآخر فصلا تاما . فالتصوير وهو فن الألوان يجب أن يستغنى عن الموضوع : لأن الموضوع من عناصر القصة . والشعر وهو فن الشعور يجب أن يستغنى عن العقل الواعى (مذهب الدادايزم) : والموسيقى وهى فن الأصوات يجب أن

تستغنى عن الشعور. والنحت وهو فن الأحجام يجب أن يستغنى عن الأفكار ... الخ ... وهذا قليل جداً مما جاءت به نظريات « المودرنزم » . ولا أحب الاسهاب فيها لأنى أكره النظريات فى الفن . فالفن عندى خلق انسانى جميل لا أكثر ولا أقل . وقد يكون فى المودرنزم نفسه ، على الرغم من نظرياته ، بعض جمال . ولكن ذلك لن يدعونى مطلقاً إلى النداء بسقوط « رفاييل » و « لافونتين » و « بيتهوفن » من أجل ثورة تنادى بها طائفة تحاول بأى ثمن الاتيان بجديد . لقد قرأت أخيراً لكاتبة فرنسية « مودرن » تقول عن حركة « المودرنزم » مامعناه : ان بعد عشرين قرنا من حضارة مفعمة بألوان البراعة الذهنية والحذلقة الفكرية وحياة الصالونات والأكاديميات ، غدت الدنيا مثل غانية عجوز مفرطة فى الزينة والبهرج والأصباغ بمقدار

بعث فى النـاس عطشا إلى عصور الفطرة الاولى بناسها العراة وإحساسها المجرد . وان قيمة الفن الحـديث هى فى أنه يحاول أن يعيـدنا إلى النضارة الفطرية البدائية وإلى مصادرالالهام الاولى . . . »

قول هذه الكاتبة صحيح . فان مصادرالفن الحديث . سواء فى الروح أو فى الاسلوب : مستمدة حقاً من الفنون الاولى مباشرة . إن أثرمصر القديمة ظاهر فى العمارات الحديثة والنحت الحديث . بل ان الامعان فى طلب الفن الفطرى وصل إلى حـد استلهام فن الزنوج . إن أثر الفن الزنجى واضح فى التصـوير الحديث والموسيقى الحديثة والرقص الحديث .

سأحدثك فى رسالة أخرى عما سمعت أخيراً من موسيقى . إنى لا أترك الآن أسبوعا واحداً دون أن أذهب إلى قاعة كونسير «بلييل» أو إلى كونسير « كولون » أو « بادلو » . بل إنى أحضر

حفلتين أحيانا فى يوم واحد . ولقدحضرت الاسبوع الماضى ثلاث حفلات موسيقية فى يومى السبت والأحد . فقد أدوا فى الأولى : « ذهب الرن » لفاجنر . وفى الثانية « السانفونى فانتاستيك » لبرليوز . وفى الثالثة «السانفونى» السابعة لبيتهوفن. سوف أحدثك أيضاً عن الموسيقى الاسبانية وقد حضرت فيها حفلتين إحداهما للموسيقى «هافتلر» . كما إنى محدثك عن الموسيقى الروسية بعد أن سمعت للمرة الثانية « سادكو » لرمسكى كرساكوف ... على ذكر « فاجنر » وصداقته المعروفة للفيلسوف «نيتشه» كدت ألمس بنفسى أثر تلك الصلة الفكرية بينهماوأنا أصغى إلى نغمة «سيجفريد» المتكررة ... تلك التى يسمونها الا Leitmotiv ... ان استخدام « فاجنر » لنغمة واحدة بالذات يطلقها رمزاً لكل

بطل من أبطال « أوپراته » ويجعلها تعود كلما عاد البطل إلى الظهور ، لتذكرنى بكلمة « نيتشه » : هنالك حادثة متكررة تعود من آن إلى آن فى حياة كل انسان » . . .

باريس — شارع بلبورف . . .

عزيزى اندريه

أرسل اليك ما كتبته من الرواية منــذ شهور وهو كما ترى فصل وشىء من فصل . اقرأهما واخبرنى رأيك . وثق كما أخبرتك انه ليس فى عزمى مطلقاً أن أتم هذا العمل رواية كاملة للأسباب التى ذكرتها لك . وأزيد عليها سبباً آخر : انى لا أدرى بأى أسلوب بدئت وبأى أسلوب تختم . فأسلوبى الآن خاضع لتطورات سريعة مستمرة . ولقد سبق لك ان اطلعت على قطعة « الحلم » التى أرسلتها

اليك وهى تختلف فى أسلوبها عما ستقرأ من هـذه الرواية . على أن الذى أرجوه منك هو أن تعيد إلى المخطوطة بعـــد قراءتها لأنى لا أملك نسخة أخرى . . . ؟

باريس ــ شارع بلبور فى . .

عزيزى اندريه

نفـذت طلباتك بالتمام ، وعلمت أن جرمين لم تبطىء عليك فى رسائلها عن قصد سىء . لاتجعـل الخيـال يضلك أنت أيضاً أيها المتشـدق بكلمة « الواقع » ! آه الآن فهمت أنك كنت ظالمى بسخريتك من حبى المنحوس وعواطفى وخيالى ؟ . . لقد انتقم لى القدر !

والآن دعك من تفاصيل الحياة التافهـة . حدثنى بخطرات بعيدة عن التفاصيل . خطرات منبعها تفاصيل وليس فيها تفاصيل . ماقيمة التفاصيل

فى هذه الحياة إن لم تكن لاستخراج قوانين عامة أو أفكارا جميلة ؟ يسرنى كثيراً أن أراك قد هدأت لنسترجع فيك « اندريه » الواقعى الرزين المازح . أما نواحى ضعفى التى أشرت اليها فانى أحب أن أعرفها واضحة جلية وإلا فلست لى بصديق . وأما الموسيقى فقد سمعت فى السبت الماضى « السانفونى دومستيك» لريتشاردستراوس،و« أغانىالأناضول » لموسيقى تركى هو « جمال راشد » وقد سررت كثيراً بهذه الأغانى لأنى استطعت أن أتنبأ بحالة موسيقانا القومية فى مصر والشرق لو وضعت داخل هذا الاطار الفنى L'orchestration ويظهرلى أن جمال راشد قصد إلى ذلك . غير أنه فيما يخيل إلى قد أسرف فى تقليد الموسيقى الروسية فلم أتمكن من تعرف ملامح الموسيقى التركية فى صميمها الا فى قطعة واحدة .

ولقد ذهبت أمس « الأحد » إلى اللوفر كعادتى . وإنك تعلم لماذا أواظب على الذهاب إلى اللوفر كل أحد . فهذا هو اليوم المخصص للدخول بالمجان . وإنى لأنفق طول يومى هناك دون أن أحس مر الوقت . بل إنى أدركت منذ أسابيع خطأ التوزع بين قاعات المتحف فى يوم واحد . ذلك شأن المشاهد السريع . أتدرى ماذا أصنع الآن ياأندريه ؟ إنى أخصص يوما كاملا للقاعة الواحدة . فأنا لست سائحا متعجلا . انى أبحث أمام كل لوحة عن سر اختيار هذه الألوان دون تلك . وعن مواطن برودتها وحرارتها . وعن رسم أشخاصها وبروز أخلاقهم واتساق جموعهم وحركتهم وسكونهم . كل لوحة فى الحقيقة ليست إلا قصة تمثيلية داخل إطار، لاداخل مسرح؛ تقوم فيها الألوان مقام الحوار . إنى لأكاد أصغى إلى أحاديث الأبطال

وهم على الموائد فى أفراح « قانا » لوحة « فيرونيز » وأكاد أسمع ضجيج الحاضرين وصياح الشاربين ورنين الكؤوس وخرير النبيذ يفرغونه من دن إلى دن .
إن طريقة إبراز كل هـذه الحياة بالريشة لقريب من طريقة ابرازها بالقلم . ان أساس العمل واحد فيهما : الملاحظة والاحساس ثم التعبير بالرسم والتلوين . بل ان الروح أحيانا ليتشابه . لطالما وقفت عيناى طويلا على صفحات ناثر أو شاعر ، وانا كالمأخوذ ، أفحص السطور بيدى لأتبين ان كانت من مداد أو من أثير . ان روح الكاتب أو الشاعر لتشف أحيانا وتخف وتتحرك فى الأجواء بلطف كأنها نسيم راقص ... هذا الشعور ملأ نفسى وبصرى أمام لوحة مثل لوحة « الربيع » لبوتيتشيللى التى يصور فيها رقص « الحسان الثلاث » فى غابة البرتقال و « فينوس » قربهن تتبع بيدها وقع الخطى . و « النسيم » من حولهن يعانق

الأزهار . . . أو مثـل لوحة موريللو عن « صعود العذراء » وهى فى جمالهـا الطاهر تخترق السماء وفى ذيلها القمر ومن حولها الملائـكة ... ان الشعر والرقص والموسيقى ليتناثر أريجهـا مجتمعة فى جو مثل هـذا الفن العظيم ... ؟

باريس — شارع بلبور لى ...

عزيزى اندريه

سررت لخطابك الضخم الذى انهلت على فيه طعنا وتقطيعا وتجريحا . ولا أستطيع كيف أشكر لك عنايتك بتحليل شخصيتى المنكودة . ومع انك تزعم ان قسوتك كان الدافع إليها الانتقام فهذا عندى لا يغير شيئا من جوهر الموضوع مادامت النتائج التى وصلت إليها صحيحة . نعم ان خيالاتى الكثيرة التى أحيا بينها تسبب لى تارة الآلام ، كما تقول : وتارة الأحلام التى لن تتحقق يوما . هذا صحيح . واكثر منه يا اندريه ان خيالى مع الأسف ليس

من نوع الخيال المثمر الذى خدم الشعراء والكتاب بل هو من نوع الخيال المهلك الذى أضاع فى وديانه السحيقة كثيرا من عاثرى الحظ الذين حسبوا أنفسهم شعراء زمنا طويلا وهم ليسوا بشعراء . ثم هنالك شىء آخر اخالك لم تلتفت إليه هو طبيعتى التى تميل إلى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعا من أوضاع ، هربا من الوقوع فى الابتذال وشغفا جنونيا بالتميز والأغراب . ففى لبسى لا أرتدى كما يرتدى الآخرون ولا ادخن لأن التدخين عادة عامة . وربما دخنت لو انقطع الناس عن التدخين . لا أهدى إلى حبيبتى الأزهار الجميلة ولا العطور اللطيفة بل أهدى إليها ببغاء فى قفص . ولا أكتب إليها مباشرة عن الحب بل اتبع طرقا لن يتبعها عقلاء الناس . وتسألنى بعد ذلك لماذا أحب «المودرنزم» ؟ أليس لأنه أقرب الفنون إلى الخروج على المتبع المألوف ؟ لقد قالها أحد

النقاد الحاقدين على هـذا الفن الحديث : « ان أهل هـذا الفن يأتون كل سخيف مهجور بحجة حرية الابتداع والتفنن فى الابتكار » . الواقع انى وجدت فى هؤلاء ، لا فقط مأواى ومعقلى ؛ بل وجدت كل طبيعتى وما تنطوى عليـه من حمق وجنون . لقد وجدت على الأقل سـندا وأساسا لرغبتى المحرقة فى الخروج على ما أسميه « المنطق العـام » . وأقصد المنطق المبنى على فروض عامة مصطلح عليهـا غير متنازع فى صوابها . كالفرض بأن الغيرة مثلا دليل الحب أو أن الخيانة رذيلة . فالنتائج المترتبة على هذه الفروض العامة تـكون فى الغالب هى الأخرى نتائج عامة . ويصبح عندئذ تسمية كل ذلك بالمنطق العام . أريد أن يكون هنالك منطق خاص ، يحوى فروضا خاصة لاتخضع للمألوف من الآراء والمشاعر ، كالفرض بأن الحب لا يحوى غـيرة مطلقا ولا بغضا مطلقا .

ومن مثل هــذه الفروض تتولد نتائج خاصة . ومن خلاصة كل ذلك يقوم ذلك الذى أسميــه (المنطق الخاص) ... لذلك تجدنى أفهم حركة « المودرنزم » على الوجه الآتى : هى اتجاه إلى عدم التقيد بالمنطق العام والنزوع إلى المنطق الخاص . كما كان « الرومانتزم » بالنسبة إلى (الـكلاسيسيزم) فى بعض مظــاهره نزوعاً فى التفـكير والعواطف من العام إلى الخاص . مع هذا الفارق فى نظرى بين الرومانتزم والمودرنزم : ان الأول لم يحاول هدم الفروض الأســاسية المألوفة أى المنطق العام ، فى حين أن الثــانى ينحو إلى هدم هذه الفروض العامة واحلال فروض خاصة فى مكانها أى إنشاء منطق خاص . سواء كان هــذا التفسير صحيحا أو غير صحيح فهو كلامى الذى يعكس طبيعتى الآن ورغباتى الحاضرة . انه عقيدتى الخاصة فى هذه الأيام لا بالنسبة إلى المودرنزم بل بالنسبة الى نفسى .

صدقت يا اندريه فى قولك انى أصلح أن أكون رياضياً وان أفكارى وتصرفاتى تكاد تسير على طريقة هندسية أو حسابية أو جبرية . هذا صحيح. ولا أدرى كيف اهتديت إلى ذلك . انا مع الأسف كذلك . وهذا ما سوف يهدم كل عمل مسرحى أو فنى أحاول انشاءه . ان اسقاطى الحياة والعواطف كما هى وكما يراها ويحسها دهماء الناس ، وركونى إلى الطريقة الرياضية فى تصريف أفكارى وتأملاتى لمصيبة كبرى . وإليك دليل آخر فى قطعة (الحلم) التى أرسلتها إليك . انك ولاشك لم تجد فيها أى صورة تنطبق على الحياة وعواطف الحياة ، ولكنك قد وجدتها متمشية مع العقل والمنطق الذى تقتضيه فروض خاصة انشأتها انا فى البداية . تلك هى الرياضة : فرض وعقل ومنطق . التصوير الحديث أخرج من حسابه العواطف البشرية وجمل

أساسه الهندسة والمنطق العقلى الواعى وغير الواعى والموسيقى الحديثة أيضا ... يا للبلاء ! انى أحب الفن الحديث وأقلده أحيانا وأخشاه وأخشى منه على نفسى ... ؟

حاشية — أكثر من رسائلك يا اندريه فهى متعتى الوحيدة الآن . فأنا محبوس فى حجرتى أستعد لامتحان الدكتوراه فى أول مارس القادم ... ؟

باريس ـ شارع بلبور ق ...

عزيزى اندريه

يجب أن تعلم انى لم أكن حرا طليقا فى اختيار الموقف الذى وقفته منك الشهر الماضى . فهنالك عوامل جعلتنى أتلقى كلامك بكل تحفظ وأضع نصحى على أساس العقل والحزم لا على أساس الخيال. وما هو العقل والحزم عندى فى ذلك الوقت ؟ تلك نقطة الخلاف بيننا . وربما كان سبب الخطأ اعتقادى أن كل ما بك لا يزيد عن مجـرد « مرض الغربة » دهمك على أثر وحدتك الفجائية ؛ فخيل إلى أن الدواء هو فى تشجيعك على الاستمرار فى تحمل هـــذه

الوحدة . وكان ان ذكرت لك كلمة « ابسن » .
« الرجل القوى هو الرجل الوحيد » ، وتحاشدت
أن أثير فيك الذكريات الجميلة والتحرق على السعادة
التى خلفتها فى باريس . أجل يا اندريه ، لقد كنت
قاسيا عليك قسوة الطبيب الذى يمنع الماء عن مريضه
الظمآن بحجة الطب والتطبيب . مهما يكن المنطق
يبرر هذا الجرم فان ضميرى غير مقتنع . وقد لعنت
نفسى لما سببته لك من ألم . انك تعرف أنى بطبعى
لست ممن يقفون عادة مثل هذه المواقف نحو
العواطف . انى أحب الحب . وانك لتعرف أن
للحب مقاما كبيرا عندى فى الحياة . فى كل حياة .
وربما كان الحب هو الشىء الوحيد الجميل الذى نعيش
به ومن أجله نحن البشر . آه لو كان القدر أعطانى
هذه النعمة لحظة واحدة ! وجعلنى أجد أحدا يحبنى
حقيقة مرة واحدة ! أنا الذى اعتقد طويلا أن

عظماء الرجال هم عظماء العــواطف وأقوياء الرجال هم أقوياء العواطف . ان الذى لايعرف ولا يستطيع أن يحب انســانا لن يعرف ولن يستطيع أن يحب الانسانية . لقد كان آلهة اليونان يحبون ويتألمون وهم آلهة.وهم رمز القوة . ان الحب والقوة لايتعارضان . ولماذا لا نقول انهما فى عين الطريق يسيران ؟ ليس عبثاً أن تقوم المسيحيــة على فـكرة حب الله مريم وايجاد عيسى ثمرة لهذا الحب . ان المعانى التى يمـكن استخراجها من هذا الرمز لا حد لها ...

لست انا إذن ياأندريه الذى يعيب عليك الاسراف فى حب زوجك وولدك ! وبعد ... فقد مضت أيام لم أر خلالها جرمين وجانو لأنى كما تعلم سجين حجرتى أطالع وأدرس . ثم لسبب أشد وأمر : الافلاس . نعم غطانى بردائه الاسود فـلم يبق معى غير ثمن شريحة اللحم . (على حدقولك) من أردإ نوع ... ؟

حاشية — بعد أن ختمت هـذا الخطاب وصلتني الآن بالبريد السريع رسالة من جرمين داخلها ورقتان ماليتان بمبلغ عشرين فرنكا (على سبيل الاعانة) كما تقول . وهو كل ما استطاعت أن تنقذني به . وانى أشكرها وأسأل الله أن لا يوقعها فيما أنا فيه ... »

باريس — شارع بلبورق ...

عزيزى اندريه

وصلنى خطابك ومعه مبلغ الأربعمائة الفرنكات وانى أشكرك . الآن تستطيع أن تطمئن على هدوئى مدة شهر ؛ على شرط أن لا تسمعنى أنت ذكر النقود . حبذا لو نسيت استعمال هذه الكلمة الملعونة بعد الآن فى رسائلك إلى ا أملى كبير فى أن تحقق رجائى ولا تطلب إلى بعد اليوم سنتيما . تلك يا اندريه هى الطريقة الوحيدة لتصحيح مركزك المالى ومركزى أنا أيضا . أنا كذلك لن أطلب عندئذ سنتيما من دائنى . سأعطيه ما أعطيتنى اليوم

وأقسط الباقى ، كما تصنع معى . وبذلك أضمن لك وأضمن لنفسى تصفية نهائية لهذه الكارثة . على أنك قد أدهشتنى كل الدهش إذ لا تزال تذكر على سبيل الجد تلك الحكاية القديمة التى أخبرتك بها : رصيدى فى البنك لذلك المبلغ الصغير الذى ربحته ثمنا لرواية تمثل لى فى القاهرة . ألأنى واضع همى فى أعماق نفسى لا أجاهر بالشكوى ولا أتفجع ولا أتوجع تظن أنى نائم على رصيد فى بنك ! أغاب عنك أيها المحترم انى أحببت ؛ وان حبى كان مما يتغذى بالنقود كما تتغذى النار بالوقود ! إنك تذكر جيدا ان الرصيد قد ذهب فى هدايا النويل والمطاعم الغالية من بوكاردى إلى حان الأبلويس . والملاهى الفاخرة والمسارح العامرة ! أنا أيضا على ديون مثلك وما تسدده لى يدخل فى جيوب غيرى . حالى مثل حالك.

على أنك أنت قد خربت وبقى الحب . أما أنا فقد خربت وضاع الحب ! ...

وبعد فانى الآن جاد فى الاستعداد للامتحان فى أول مارس . وهى آخر فرصة لى . فاذا ضاعت فانى أقطع الأمل نهائيا فى نوال الدكتوراه . ذلك ان البرنامج بعد ذلك يتغير وبهذا يذهب هباء كل ماقرأت فيامضى. ثم انى لن أستطيع التقدم مرة أخرى إلا بعدمرورعام على الأقل ، بالبرنامج الجديد . فأول مارس كما ترى هو التاريخ الفاصل فى أمر مستقبلى الدراسى للقانون . وفشلى فيه سوف يكون صدمة كافية أن تقصينى الى الأبد عن طريق الحقوق . فهذا الامتحان هو حدث هام فى حياتى . ولا أريد أن أتهاون فيه حتى لا تلقى التبعة على وعلى ارادتى . فأنا أجهد نفسى فوق الطاقة لأضع التبعة على رأس القدر . فاذا أراد هو أن يصدمنى ليخرجنى من سجن

القانون إلى فضاء ... الى اى فضاء ... فتلك اذن ارادته هو لا ارادتى .

ارجو ان تعيد الى الرواية بالتالى . فأنا لست ادرى ماذا قام برأسى فجعلنى ارسل إليك شيئا مثل هـذا لم يتم . وحبذا لو اعدتها قبل ان تقرأها . اما اذا كنت قد قرأتها وقضى الأمر فاكتب إلى برأيك فيما قرات ... ؟

حاشية — فاتنى ان اخبرك انى ذهبت منـذ يومين لمشاهدة «اندروماك» لراسين فى الكوميدى فرانسيز . وقد خطر لى ان اصطحب جرمين . ولكننى بحثت فى جيبى فلم اجد معى غير ثمن مقعد بالمسرح « فى اعلى عليين » ... وحتى لو كان معى اجر مقعد آخر بجانبى لخجلت ان ادعو اليه جرمين ... ان الارتفاع والعلو موضع فخر فى كل شىء الا فى المسارح ! :

آه يا اندريه ... ان تمثيل التراجيديا عمل ليس بالهين . ذلك ان المطلوب من الممثلين ليس مجرد تفسير النصوص طبقا للروح الفلسفية والاسطورية التى تنطوى عليها هذه الآثار ... ولكن كذلك طبقا لأوضاع الفن « البلاستيك » كما عرفه الأغريق . ان كل وقفة فوق المسرح من وقفات ممثل التراجيديا يجب أن يكون لها جمالها المثالى فى فن النحت . كل ممثل أو ممثلة للتراجيديا يجب أن ينتقى من بين أصحاب الأجسام التى تصلح فى ذاتها نماذج فنية للمثالين . ان الصلة لوثيقة جدا بين فن النحت وفن تمثيل التراجيديا ... كما هى وثيقة بينه وبين فن الموسيقى . ان أصوات ممثلى التراجيديا لا تنتقى عفواً ولا تلقى عفواً . فليس الالقاء الطبيعى هو المطلوب فى التراجيديا ، كما هو الحال فى الدراما أو الكوميديا . وإنما يجب أن يكون الصوت والحركة فى التراجيديا ــ

كما هو الحال فى « الأوبرا » ـ خاضعين قبل كل شىء للأوضاع المعروفة فى فنون النحت والموسيقى والمهارة والتصوير . لذلك كنت مخطئاً فى حكمى يوم شاهدت لأول مرة فى الكوميدى فرانسيز ممثلة التراجيديا « سيجون فيبير » والممثل التراجيدى « ألبير لامبير » يلقيان الشعر على نحو اعتبرته أنا خارجاً على الطبيعة . وهل الشعر بنظمه وقوافيه وأوزانه الموسيقية إلا من الفنون الخارجة على الطبيعة ؟ . . وما دام هو كذلك فيجب أن يؤدى متسقاً لامع الطبيعة ، ولكن مع غيره من الفنون التى تتصل بها التراجيديا . . . ؟

باريس ــ شارع بلبور فى . . .

عزيزى اندريه

لاشك انى لست كريم الخلق بالفطرة والسليقة . أمس هبط علىّ الشاعر البارناسى فى حال يرثى لها ، فلم أمد له يد المعونة كما ينبغى . يجب قبل كل شىء أن تعرف من هو هذا الرجل عندى ؟ انك لم تره غير مرة واحدة معى فى قهوة « الدوم » . وقد غاظك منا اشتغالنا عنك بمناقشات فنية طويلة عن الفروق الدقيقة بين المدرسة الايطالية والمدرسة الفلمنكية فى التصوير . فتركتنا ساخراً وأنت تهمس فى أذنى : « أين هذا الشيخ المتهدم الذى جاوز الثمانين من تلك

الصبيـة الحسناء التي تنتظرنى فى « الروتوند » ؟ !
ولـكنك تذكر أن اغراءك فى تلك المرة لم يصادف
عندى نجاحا . ان الجلوس إلى ذلك الشيخ المتهدم كان
ينسينى مفاتن الدنيـا . لأنه كان يرينى مفـاتن الفن.
هو الذى فتح بصرى على جمال الفن « البلاستيك »
من نحت وعمارةوتصوير . كما أزاح لى مسيو «هاب»
الستار قبل ذلك عن جمـال الآداب القديمة . فقرأ
معى الالياذة وبعض مآسى سوفوكليس وأيروبيد
وإشيل وكوميديات ارستوفان ... ثم ترك حبلى على
غاربى : وقد تمـكن منى داء المعرفة . فتركته
وانطلقت وحدى التهم كل شىء من قديم وحديث .
وكما حـدث مع والدتك يوم كنت أقطن عندها فى
« كوربفوا » . وتذوقت لأول مرة غنـاءها
للأوبرات . فـكنت أنتزعهـا من المطبخ انتزاعاً
لتذهب إلى البيانو « بفوطتها » تغنى لى المقطوعات

الجميلة فى « كارمن » و « فاوست » و « اجراس كورنفيل » . إلى أن عرفت طريق دار الأوبرا والأوبرا كوميك ثم قاعات الكونسير « كولون » و « جافو » و « پادلو » . فلم أعد إليها بعد ذلك قط . على أن والدتك وكذلك مسيو « هاب » ليسا فى حاجة إلى حسن المعاملة . أما ذلك الشاعر المسكين فله شأن آخر . انه لا يكاد يجد الآن ما يسد به رمقه . انه كان شاعرا معروفا يوم أخرج مجموعة شعره الكبرى . ولقد أرانى نسخة من الطبعة الأولى صدرت منذ نصف قرن ، وقصاصات من نقد ذلك العهد تنعته بأنه من أركان مذهب « البارناس » ولكن الشعر لا يستطيع أن يقيم أود انسان إلى ما بعد الثمانين . فهو اليوم بائس حقا . يعيش فى حجرة قذرة « مانسارد » . ويأكل مما تجود به معونة أصدقائه . ولعل أكثرهم قد مات الآن . وهو قد

فرح بى يوم عرضت عليه أن يقودنى إلى المتاحف وآثار الفن وأن يلازم أحدنا الآخر كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا . على أن أتكفل أثناء ذلك بنفقات غدائه وعشائه وتبغه وشرابه . وهو يستحق أكثر من هذا ولكن ماليتى كما تعلم محدودة . ومع ذلك فما كنت أتركه بعد كل لقاء دون أن أدس فى يده ورقة مالية صغيرة . وأنا أقول فى نفسى « اجمل انك اشتريت بهذا المبلغ كتابا » وما أكثر الكتب التى أبتاعها فى كل يوم كما تعلم بالمال المخصص لكسوة الشتاء . على أن هذا الرجل كان لى خيرا من ألف كتاب . انه كتاب حى متنقل ماترك قاعة فى متحف اللوفر ، أو حديقة فيها تماثيل ، أو كاتدرائية أثرية دون أن يذهب بى إليها ويقف بى عليها شارحا مفسرا . إنى لم أزل أذكر لقاءنا الأول وقد أحضر معه إلى القهوة «صرة» صغيرة . سألته عنها دهشا .. ففتحها

بحرص واعتزاز دون أن ينبس ... فاذا هى بمجموعة أثرية صغيرة . عن العصور الحجرية الأولى . أو ما يسمونه « المجاليت » وأخذيوضح لى المظاهر الأولى لفن العمارة فى « المنهير » و « الدولمن » ... ذلك انه أراد أن أبدأ فى معرفة الفن من البداية ... فأرانى تطور النزعة الفنية منذ الانسان الأول .. وقادنى إلى متحف التاريخ الطبيعى . . ثم إلى دار الكتب ... وهناك رأيت لأول مرة تمثال « افروديت » بغير رأس ولا ذراعين ولا ساقين . ولكن أى جمال ! ؟

«لاشىء أجمل من جسد امرأة» تلك هى الصيحة التى لفظناها أمام هذا التمثال . لقد قلت لصاحبى الشاعر يومئذ انى قد فهمت المعنى الحقيقى لكتاب « بيير لويس » عن افروديت . انه ولا شك قدرآى من تمثالها هذا ما رأينا ! .. كيف استطاع ذلك النحات الاغريقى أن يستخرج من ثديين وردفين

(لأن التمثال ليس أكثر من ذلك) جمالا ارتفع القدسية ؟! « بيير لويس » أراد ذلك أيضا بلا جدال ، فأشاد بجسد المرأة إشادة لم تفهم أحيانا على الوجه الذى أراد ... وهكذا كنا نتحادث ونتناقش أمام كل تمثال أو صورة أو أثر فنى ... ويجرنا الحديث من فن إلى فن ، ومن مقارنة إلى مقارنة . فالآداب والفنون والعلوم وكل مظاهر النشاط الذهنى متصل بعضها ببعض إلى حد قد لا يصدق لأول وهلة . فالمعرفة سائل فى إناء عناصره كل هذه الأشياء ...

وأخيرا جاءت الساعة المحتومة . لقد تفتحت عيناى وانتهى الأمر . . وعرفت كيف أبصر دون حاجة إلى دليل . وعرفت كيف أقرأ فى ذلك الباب . فهذا (هيبوليت تين) و (جان مارى جويو) و (جرانت ألن) و (جون رسكن) و (سالمون ريناخ) الخ ... وعشرات الكتب الفنية المصورة عن أعمال المصورين

والنحاتين . وهذا هو (اللوفر) و (اللوكسمبورج) ومتحف « رودان » والمعارض السنوية الدورية . ثم بعد ذلك كله وهو الأهم ... هذا هو تفكيرى الشخصى قد تكون بعض الشيء ونظرتى الخاصة بدأت تطالبنى بأن أستقل فى التأمل والتقدير والاستنتاج . جاءت اللحظة التى شعرت فيها بوجوب السير بمفردى ... وكانت بوادرها ذلك لليوم الذى أدركت فيه ان محادثات ذلك الشاعر لم يعد فيها جديد يثير اهتمامى أو التفاتى . ولقد شعر المسكين بذلك فكف عن الحديث فى الفن . وندرت مقابلاتنا واقتصر الكلام أثناءها على التافه من أمور الدنيا . إلى أن انقطعت . وانصرف كل إلى شأنه . فأصبحت لا أراه إلا إذا اشتدت بهضائقة ارغمته على اقتراض بعض النقود منى . ولقد جاءنى أمس كما قلت لك فى

الصباح المبكر فاستيقظت ساخطا متبرما فأبصرته يرتعد من البرد ويقول لى : « إذا لم أجد دثارا ثقيلا فى هذا الشتاء فانى لن أظل حيا حتى مطلع الربيع » فلم أرد عليه بكلمة . ولكنى أخرجت له ورقة مالية صغيرة وضعتها فى كفه كأنه شحاذ . فرفع الشيخ قبعته شكرا وانصرف صامتاً . وعدت إلى فراشى لأستأنف رقادى . فقد سهرت ليلتى اطالع كالمعتاد . ولكن النوم هرب منى . لقد تنبهت لما حدث . وتمثل لى سوء فعلى : كيف اصنع معه ذلك ؟ وكيف اتركه يذهب هكذا بقليل من نقود لن تغنيه شيئا . وتذكرت هيئته الذليلة ساعة انصرافه صاغرا مذعنا لحكم القدر او حكمى انا على الأصح . وكانت آخر لفظة قالها برغم ذلك هى merci beaucoup خرجت من فمه خافتة مخلصة

لا اثر للمرارة فيها ولا للعتاب . . . هنا ادركت انى لو كنت حقا كريم النفس لألقيت على منكبيه المزيلين معطفى بغير تفكير ولا تدبير ولا تردد . . . ؟

باريس — شارع بلبور فى . . .

عزيزى اندريه

لقد لفظ القدر كلمته . انه لا يريد لى طريق القانون . لقد رسبت فى ثلاث درجات . ولم ترد لجنة المحلفين جبر النقص بينما وافقت لجنة اخرى على جبر اربع درجات لأحد اعضاء البعثة . من هذا ترى ان القدر لم يرد ان يمد إلى يده كما مدها إلى غيرى . لماذا ؟ اياك ان تفهم انى تهاونت فى الدرس . لقد كانت اجابتى مرضية جدا فى علم تاريخ المبادىء والمذاهب الاقتصادية (آراء ارسطو حتى آراء كارل ماركس) وكذلك فى علم الاقتصاد السياسى وكذلك

فى علم التشريع الصناعى . ولم اهبط إلى حدالرسوب إلا فى علم واحد هو علم « المالية » (ولعل هذا يفسر لك ارتباك ماليتى) . انه علم اجراءات وارقام لاتستقر فى ذاكرتى . آه للذاكرة يا اندريه . ما دامت الذاكرة هى المعول عليها إلى حد كبير فى الامتحان فلا امل لى . اما المطالعة فى ذاتها فما ايسرها وماالذها عندى . انى اطالع فى اليوم مالا يقل عادة عن مائة صفحة فى مختلف الوان المعرفة (من ادب وفنون وفلسفة وتاريخ إلى علوم رياضية وروحانية) مائة صفحة فى اليوم اى ثلاثة آلاف صفحة فى الشهر . بينما المقرر كله لامتحان الدكتوراه لا يتجاوز ثلاثة آلاف صفحة فى العام كله . لو تعلم انى قرأت مقرر الدكتوراه للقانون العام وهو عن : «سلطة الكنيسة والدولة » و « نظام العبادات منذ القرن الرابع عشر » و « عصبة الأمم » و « المبادىء البارزة للقانون

الدولى » و « اهم اتجاهات قضاء مجلس الدولة » و « الدساتير المكتوبة » . قرأت ذلك كله دون ان اتقدم فيه الى اى امتحان . قرأته لمجرد القراءة . وما قراءة مقرر عندى إلى جانب قراآتى الأخرى ! ألم أخبرك أنى تتبعت كثيرا من دروس السوربون لغير غاية الا تتبع آثار الثقافة التى تعنينى . لقد حضرت كثيرا من محاضرات الأستاذ برنشفيج عن « صلات العلم بالدين فى القرن السابع » ومحاضرات دلاكروا عن « الأحوال النفسية للفن » . ودروس روبين عن « المذاهب الأخلاقية والسياسية لأفلاطون وارسطو » . ودروس فوجير عن « مصادر فن العمارة الاغريقية » و « آثار اكربول اثينا » . ومحاضرات شنيدر عن « ميكل انجيلو وعصره » . ومحاضرات برونو عن « الثورة واللغة » . ومحاضرات لجويس عن « تاريخ الشعر الانجليزى » الخ . لم يمنعنى

الانقطاع عن الحى اللاتينى من متابعة هذه الدراسات فقد استحضرت كتبها وانغمست فى مطالعتها لنفسى ، وسرت على دربها وأنا فى حجرتى . ان التحصيل فى ذاته للثقافة والتكوين هو لذتى الكبرى الآن . انما الذى يخيفنى هو الامتحان . لقد تحقق لدى اليوم انى لا أصلح بطبعى للتقدم إلى أى امتحان. ذلك ان الامتحان يريد منى عكس ما أريد أنا من القراءة . انى أقرأ لأنسى . والامتحان يريد منى أن اقرأ لأتذكر . انى اقرأ لأهضم ما قرأت أى أحلل مواد قراءاتى إلى عناصر تنساب فى كيانى الواعى وغير الواعى . أما الامتحان فيريد منى ان احتفظ له بهذه المواد صلبة مفروزة . انى اشعر وانا اقرأ حتى مقرر الدكتوراه فى القوانين ان مواده قد تفككت واختلطت بمواد أخرى لقراءات اخرى لا علاقة لها بالقانون ، كما تختلط فى المعدة المواد الغذائية بعضها .

ببعض . وإذا الناتج من هذه المواد المختلطة هو عصير ثقافى يسرى فى دمى المعنوى فأحس كأن وزنى الفكرى قد ازداد ، وكأن قدرتى على احتمال التأمل المثمر قد نمت . أما المواد الغذائية فى ذاتها فقد هضمت أى نسيت . الامتحان يريد منى ان أوقف عملية الهضم حتى يتحقق الممتحن من وجود المواد صلبة مفروزة داخل المعدة الذهنية .

لا أريد بذلك أن أعيب نظام الامتحان فى ذاته . إنما انا اعيب نظام بنيتى الفكرية . انى سريع الهضم إلى حد قد يعد مرضاً فى نظر الممتحن . ومع ذلك لماذا أتقدم لممتحن . ما دمت قد تناولت الغذاء واحس حرارة الدم القوى تفور فى رأسى فلماذا ادع الناس يفحصون ما فى معدتى ؟! .

اترانى ادافع عن نفسى والتمس الاعذار يا اندريه ! لست ادرى . ها انت ذا ترانى غير يائس

ولا ساخط . وإنى أتقبل الصدمة باسماً لأنها لا تدل على شيء ، إلا على قرب وقوع الكارثة العظمى : تركى أوروبا والعودة إلى بلادى ...

لقد لفظ القدر كلمته . ولا جدوى من الاصرار على معارضة القدر . لكن ... أتراها يا ترى ارادة القدر حقاً أم ارادتى أنا ؟ من الانصاف أن أخبرك بشيء عجيب : لقد قرأت منذ أسبوعين كتابا جديدا لأحد معاونى فرويد عن « القدر » . ذكر فيه اننا نحن الذين نصنع أقدارنا بأنفسنا . وان ما نسميه القدر ليس إلا ارادتنا غير الواعية . ورب حادث صغير أو حلم من الاحلام أو نبوءة من النبوءات نصدقها فتستقر فى أعماقنا وتعمل سرا على دفعنا فى سبيل تحقيقها . فلقد حدث لى مثل هـذا الحادث . كان ذلك آخر ليلة استعد فيها للامتحان . لقد سهرت إلى الرابعة صباحا تحت مصباح المكتب الصغير . حتى أتممت مراجعتى الأخيرة

فطويت الأوراق والكتب ونهضت للنوم كى أستيقظ نشيطا للامتحان . وكنت منشرحا متفائلا مفعما بالأمل لامتلاك ناصية المقرر . وإذا فجأة تصطدم يدى بالمصباح فيقع مكسورا على أرض الحجرة تاركا كل شىء فى الظلام . عند ذاك دب التشاؤم فى نفسى . وحدثتنى نفسى بسوء الختام . فى هذه اللحظة فقط كان فشلى قد تقرر . كما تقرر مصير « مكبث » ملكا مجرما فى اللحظة التى آمن فيها بنبوءة الساحرات .

سواء كانت تلك إرادة القدر أو ارادتى فقد فشلت يا اندريه . فارث لى . . . ؟

حاشية — لماذا لم تعد إلى الرواية بالتالى . انى دهش لاغفالك خبرها ! . . أتراها لم تصل إليك ؟ . . .

باريس فى ٢٤ مايو . . .

أندريه . . .

بعد بضع ساعات أكون قد فارقت باريس المحبوبة ..

أسافر هذا المساء بقطار الساعة التاسعة . وغدا ٢٥ مايو تكون الباخرة « راولبندى » قد اقلعت حاملة جثمانى ، وان يسألونك عن الروح قل روحه فى قاعة كونسير « بلييل » ! . .

اندريه ، لست أملك الآن من أمرى شيئا ، الا الابتسام فى وجه القدر الظافر . ولعل هدوئى راجع إلى توقعى هذه الكارثة ، التى تعرف إنى طالما

ترقبت ساعتها بذعر وفزع . لقد وقع الأمر المحتوم. فما نريد أو أريد ؟ أملى الباقى معلق عليك . رسائلك يا اندريه على الأقل ! رسائلك تحمل إلى فى صحرائى نسيم أوروبا العظيمة !

أودعك يا اندريه وداعاً حارا . وأودع جرمين وجانو وقد رأيتهما أمس للمرة الأخيرة . أودعكم وأودع فيكم باريس الفن والفكر . . . ؟

حاشية — كنت أريد أن أحدثك عن موسيقى اليوم (ميلهو — روسل — هونجر — سترافنسكى) بمناسبة حفلات هامة قامت بها فرق أجنبية فى باريس فى الشهرين الأخيرين: فرقة ألمانية بقيادة «مانجلبرج» وأخرى نمساوية بقيادة «برونو فالتر» . ان طرق هذه الموضوعات الآن لما يزيدنى ألما . على أنى أحب أن

أقول لك ان سخطى على سترافنسكى يوم نشر نقده المقذع لفاجنر وبيتهوفن قد زال بعضه عند سماعى قطعته « تقديس الربيع » مرة أخرى . إنه على كل حال تعبير قوى لاتجاه جديد فى الموسيقى وأغراضها كما يفهمهاهذا الروسى الثائر .

نسيت أن أخبرك فى رسالتى السابقة انى شاهدت رواية « هاملت » فى الشهر الماضى يمثلها خير ممثل فى ايطاليا حذق هذا الدور وهو (روجيرو روجيرى) وكنت قد شاهدتها قبل ذلك من تمثيل (موييسى) وهو خير من قام بهذا الدور عينه فى ألمانيا ... إن مجال المقارنة بين الفنين لما يحتاج إلى رسالة طويلة . ويكفينى أن أقول لك انه لا يوجد مكان فى العالم ترى فيه الفنون كلها مجتمعة سوى باريس . باريس هى (فترينة) العالم . نعم . . . هى

الواجهة البلورية التي تعرض خلفها عبقرية الدنيا . . .
أكرر وداعي لك ولباريس وأحذرك يا اندريه من
أن تحرمني وأنا بمصر هذا الاتصال بألوان
الفن . . . ؟

الاسكندرية فى ١٢ يونيو . . .

عزيزى اندريه

أحفظ لك فى نفسى جميلا يضاف إلى سوابقه : رسالتك الطويلة التى بادرت باطلاقها فى أثرى ، فأدركتنى ولما أتم الأسبوع فى بلادى . إذا أردت أن تعرف مقدار اغتباطى بهذه الرسالة فاذكر أنك ضمختها بعطر فرنسا المأسوف عليها .

أود لو أكتب إليك بأخبارى ومشاعرى ، ولكنى أراها لا تساوى شيئاً كلها . أهى شىء غير اطراق طويل وابتسامة حزينة ، كلها رأفة ورثاء لكل ما يقع أمامى ها هنا ، ويأس قاتل وتحرق دائم،

وأيام تجرى كالدموع الباردة ، وحيـاة أتمنى ردها لخالقها ان لم يعطنى حتى استعمالها كما أريد ! هل ترانى مستطيعا أن أكون شيئا غير ذلك الآن ؟ !

أختم خطـابى سريعا خشية أن يفوت موعد البريد المسافر إلى أوروبا هذا الأسبوع . وإنى أترقب رسالة منك : فأنت الذى يقدر على إمتاعى بالطريف القيم ، أما أنا فما عندى شىء مفيد أقوله لك ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

ها انذا أسرع فى الرد على رسالتك راجيا أن تصلك خلال شهر الراحة كما تقول . وكل أملى أن يجيئنى منك رسالة عاجلة شافية تربو صفحاتها على العشر . فان أول ما يعنينى معرفته حين استلام رسائلك هو وزنها وحجمها غير حافل بما تحويه من كلام . فأنا فى حاجة كما ترى إلى مجرد ثرثرتك . أما أنت فما أظن بك حاجة إلى أخبارى . لأنها راكدة كالماء الراكد . ولو بدا تغير قليل فى مجراها البادرت باخطارك . كل ماعندى هو أنى أعيش فى جو فكرى

ـ ان كان فى مصر ما يجوز أن يسمى بالجو الفكرى ـ لا يستطيع أن يعيش فيه مثلي . وأصدقاء الماضى أصبحوا لا يصلحون اليوم لى ، فحديثهم ونكاتهم وطريقة قتلهم للوقت لما يزهدنى فى الجلوس إليهم . وان شئت وصفا دقيقا لحالى فهو يتخلص فى كلمة واحدة : الوحدة . الوحدة فى أكمل وأقسى معانيها . امضى اليوم فى القراءة فاذا جاء الغروب خرجت الى (كازينو سان استفانو) لأسمع القليل من الموسيقى التى يعزفونها هناك . وحتى فى هذا المكان الصاخب باللاهين أحرص على وحدتى فانزوى خلف عامود قرب (الأوركستر) متحاشيا نظرات من أعرف حتى لا أكلف نفسى عبء التحية . وهل تتصور أن يكون حالى غير ذلك ؟

لا أكتمك يا اندريه ان صرخة خرجت من أعماق قلبي عندما قرأت فى رسالتك خبر حريق

قاعة كونسير (بلييل) ! ان ألمى لهذا الخبر سيتضاعف كلما ذكرت ان هذا الهيكل العظيم هو عندى رمز من رموز الفن فى باريس . اكتب الىّ كتابا مطولا اذا كنت تعتقدان اسمى واجباتك نحوى هو التفضل على ساكن الصحراء ببعض نفحات أوروبا العاطرة ..؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

تعبت من كل شىء ، ومن كل انسان ، ويئست من أن بلدا كمصر يصبح فى يوم قريب ذا حياة فكرية . لا حياة فى مصر لمن يعيش للفكر . . . لا يشغل عقلى الساعة غير شىء واحد ، ولا يلذ لى الا أمر واحد : تحطيم كل شىء . تحطيم كل شىء هام . وابدأ بمستقبلى الذى يلوح لى انه بدأ يتفتح عن وظيفة فى القضاء . . . حبذا لو استطعت تحطيمه لأهيم على وجهى فى بلاد الأرض ، لا تحدنى غاية ولا يوقفنى غرض .

وصلتني اليوم بطاقة البريد المصورة من(ليل) ، فغبطتك ، انك الآن في شمـال أوروبا . يا للحظ الجميـل !

أشعر انى لا استطيع ان أكتب إليك اكثر من ذلك . وحرصى على ميعاد قيام البريد يدفعنى الى ختم هذه الرسالة عاجلا . وبذلك تصلك منى كلمة على اى حال . اريد ان اكتب الى جرمين . فأنا شديد الشوق اليها والى الصغير الجميل (جانو) ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

الحق انى راض عنك كل الرضا ، شاكر لك كل هذه العناية . ولا اكتمك انى ما كنت اصدق وانا مغادر باريس ان اتصالك بى سوف يكون بهذا المقدار . لقد كنت احسبك ستنصرف عنى الى حالك فلا تكتب الى الا بقدر ما يقطع شكى فى وجودك . أما الآن فقد ثبت لدى أمام رسائلك المتتالية انك لا تكتب الى أداء لواجب . أتراك تحس ان اخبارك وأحوالك لها شأن عندى ؟ هى الحقيقة يا اندريه . مامن انسان يتتبع الآن احوالك مثلى .

حدثني عن نفسك كثيرا وعما حولك . اريد ان احدثك عن آلامي ولكني لاانسى سخريتك ولذعك وهزءك بكل جد . هذا القلم في يدك اتبين دماء (فولتير) تجرى فيه احيانا ، فينبئني قلبي بأنك لن تكتب الى ردا يجعلني اطمئن اليك . فلأوثر الصمت ولأطلب اليك انت الكلام . حدثني انت عما عندك في الشاطيء الآخر ، آه الشاطيء الآخر .. المائج بأضواء الحياة الفكرية ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

مضى شهران وانا انتظر خطابا منك لا يأتى . وبدأت اعتقد انه لن يأتى ابدا . ومع ذلك ثق انى لم اصب عليك اللعنات . او انى فعلت . ولكننى اقسمت انى على استعداد لشراء خطاب منك بالنقود . نعم انه لتمر بى لحظات أخرج من جيبى ورقة مالية اعلم أنك فى أشد الحاجة اليها ، واضعها أمامى ثمنا لرسالة منك ذات أربع صفحات ...

أما بعد ، فان مسألة (أكل عيشى) ما زالت عقدة العقد وأمرها أصعب مما تتصور . ماذا تريدنى

أن أكون وكيل نيابة؟ تاجرا ؟ مزارعا؟ ثق أنى فى أى مهنة خلقها الله لن أكون سوى شىء واحد : أنا بطبيعتى ونقصى ! ومعنى ذلك انى سوف أكون وكيل نيابة أو تاجرا أو مزارعا على طريقتى ، وهنا المصيبة والفضيحة : انك تعلم من غير شك ان لى منطقا خاصا يشط بى أحيانا عما اعتاده الناس . فاذا أنا فى واد والناس فى واد ، ينظرون إلى ويقولون : إما انه أبله وإما انه فطن . لا أذكر فى حياتى ان الناس حكمت على غير هذين الحكمين المتناقضين : ففريق ، ومنه والدى يقول إنى ابله ، وفريق ومنه والدتى يقول انى فطن . ولم أسمع طول عمرى حكما وسطا بين هذا وذاك . على أن هذا كله لا يهمنى ولا ينبغى أن يهمك . مستقبلى حتى الآن شىء غامض . بل لعله لم يكتب بعد فى « اللوح المحفوظ » ! اذكر قولك لى مرة فى حديقة اللوكسمبورج : ان الله لم

يخلقني . انما هو الشيطان أراد أن يخلق طرازا جديدا من الآدميين أو « موديل » من الانسان ، يضارب به الطراز الشائع المعروف . فجاء خلقه عجيب البناء غريب التركيب ، به أثر من عبقرية الشيطان ، ولكن به نقصا ينم عن تخبط فى شئون الخلق والابداع . ومع ذلك ، حتى على فرض أن الله هو الذى خلقنى لا الشيطان . فانه كان لسوء حظى يضجر ويتبرم كلما جاءه جبريل بلوحي المحفوظ ليعين فيه خطوات حياتى . فقد كان يصرخ فى وجه الملاك الأمين قائلا : « اذهب عنى الآن ! » فيقول جبريل خاشعاً : « لكن . . . يا إله السموات والأرض ، المدعو توفيق الحكيم ولد وشب ونما وكاد يدنو من الثلاثين ، وهو لم يزل يدب على الأرض ويعيش فيها بالمصادفة ... وكلما جئت إليك بلوحه لأجل التعيين.. » فيسمع كأن الصوت العلوى يصيح به: « قلت لك

اذهب عني الآن ولا تشغلني بهـذا المخلوق ! »
هكذا أعيش بغير مصير : حياتي فيما يخيـل إلى هي في يد المصادفة . والمصادفة غير قديرة على صنع حياة محبوكة الأطراف . آه . . . ان حياتي مفـككة ، كالقصة المفـككة ، أو الهيكل المزعزع الأركان . انا الذى لا يحب فى الفن غير قوة البناء ، وما يتبعه من قوة التركيز . وهذا هو سر عنايتى بالحوار التمثيلى فى الأدب . نعم ذلك ما أسميه عاطفة الا architecture . هـذا الاحساس الهندسى الذى من نتائجه : الحساب ووضع الـكلام بمقدار والاعتماد على الخطوط الـكبرى التي تحدث التأثير . انى مهندس architecte أدبى . هـذا كل شيء . من ذلك الطراز الذى يشيد معبدا ماريا : أعمـدة ضخمة متناسقة ولا شيء غير ذلك . ما أشد حاجتى إلى حيـاة قائمة على أعمـدة راسخة كالمعبد الضخم الجميل ! انى معبد يتصاعد من جوفه

لا بخور الايمان ، بل بخار الشك والقلق . انى أتألم ألما لا يراه أحد : اذ لا يظهر على وجهى شىء غير هدوء الرضا . هنالك دودة دائمة الوخز ، دائبة النخر فى قلب هادىء المظهر رائع المنظر كالكمثرى الذهبية. هنالك قلوب يسكنها الألم كأنه عبادة . حياتى كلها ليست سوى قارب ثمل . لهذا يخيل إلى أنى صديق « رامبو » الانسان قبل الشاعر ، ولهذا أيضا كنت صديق « ايفان » الروسى الثائر ! أما انت يا أندريه ، ن لك قلبا من غير شك ولكن ... ينقصك الألم . إذا انصهر قلبك يوما انصهارا كافيا وانتشر حوله الدخان ، فان هنالك بين ذلك الدخان تستطيع أن ترى الشبح الحقيقى لصديقك الشرقى !

انى الآن أنتظر الشتاء ، ولعله يأتى بجديد . ولعل الله فى هذه المرة يلتفت إلى وجودى غير ضجر ولا متبرم فيعين طريقا لحياتى . ان الانتاج الفكرى

يا اندريه ليرتبط إلى حد ما بطريقة عيش الكاتب ، ويتلون احيانا بلون حياته اليومية . لذلك ترانى أنتظر. على أنى فى هذه الفترة أتعزى عن نفسى بك وبنشاطك وأوجه ببصرى إليك فى أمل ، واتبعك فى مطالعاتك الليلية فى غبطة ورجاء . . . ؟

حاشية — بعد أن ختمت هذا الخطاب تأملت قليلا فى أمر ذلك « اللوح المحفوظ » الذى تسطر فيه مصائرنا . مما لا شك فيه ان لكل نفس خلقت قصة يجب أن تعيشها على هذه الأرض . ومما لا شك فيه أيضا ان كل قصة يجب أن تكون جديدة بعض الجدة ، وان تختلف عن غيرها بعض الاختلاف . تصور اذن كم من القصص قد ألف ويجب أن يؤلف لملايين ملايين الملايين من البشر يخيل إلى ان هنالك فى السماء ملاكا فنانا منقطعا لتأليف قصص المواليد

قبل خروجهم إلى الحياة . هذا الملاك الروائى المخصص لهذا العمل العسير يجب أن يكون واسع الخيال إلى حد مخيف . والويل له إذا نضب خياله مرة . اخشى مع ذلك أن يكون خياله قد نضب وهو يمسك بالقلم ليسطر قصة حياتى ! ...

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

انى آخـذ عليك تقصيرك فى الـكتابة إلى . وأوجه نظرك مرة أخرى إلى أن رسالة تـكتبها إلى لا تشغلك كثيرا ما دمت تجد وقتا يتسع لمغازلة الحسان . ولو ان بينى وبين نفسى أعـلم ان هذه المغازلات قديمة التاريخ . ولا أحسبك قد نسيت قهوة الدوم والأمريكية ذات العيون التى تشبه فى زرقتها ماء بحيرات الجنة ! على انى أغتفر لك عن طيب خاطر كل اهمال إذا كنت مشغول الوقت حقيقة ـ بعد عمل المصنع المرهق ـ بالقراءة والمعرفة بما فيهـا الموسيقى وألوان الفنون جميعا . ذلك الداء الذى تقول انى رميتك

به . لم يخب ظنى . انك قد سمعت فى هذين الشهرين من الموسيقى خير ما يمكن سماعه . فانى أعلم ، وقد مكثت فى باريس شهرى مايو ويونيو من بعض الأعوام : ان ذروة الموسم الموسيقى هى فى هذين الشهرين . فان خير الفرق تتلاقى فى باريس فى ذلك الوقت قبل تفرقها فى المصايف . لقد سمعت انا أيضا سانفونية « ماهلر » التى تحدثنى عنها و « نشيد الأرض » وهو إحدى روائع صحائفها . كما سمعت قطعة « الأفراح » العجيبة لسترافنسكى ، وكذلك قصيدته السانفونية « تقديس الربيع » وفيها هى أيضا « نشيد للأرض » ولكنها الأرض الوثنية لا أرض « ماهلر » التى تتصاعد منها الروح الدينية العميقة . غير انك أحسن حظا منى بسماعك Lotte Schoene المغنية العظيمة . وفرق «الكورس» الشهيرة التى وفدت إلى باريس هذا العام . فأنا

لا أمل لى هنا فى سماع هذا الضرب من الموسيقى ، أعنى الصوت الآدمى المنفرد أو المجتمع . فأنا أستطيع على كل حال أن أجد فى الموسم الموسيقى لكازينو سان ستفانو تحت قيادة ايطالى متواضع يدعى « بونوى » كل برامج الموسيقى الآلية تقريبا ، حتى « اندانت » لماهلر سمعته ببرنامج الأمس . لكن من المحال أن آمل فى سماع messe أو requiem أو على الأقل السانفونية التاسعة لبيتهوفن . فمشاهير المغنين والعازفين لا يأتون هنا بالسهولة التى يذهبون بها إلى باريس . لذلك ارسلت إلى المانيا فى طلب اسطوانات لهذا النوع الذى لن اطمع فى سماعه هنا . وقد كلفنى ذلك نقودا واى نقود ! وبعد فاشكر لك حديثك المسهب عن الموسيقى . فأنت ولا شك تعلم ان الحديث عنها هو خير ما تطرب له اذناى . . . ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

نعم . انك ارتفعت حتى قمة الجبل . وقمت بتلك الرحلة الصاعدة الجريئة . وكان من حسن حظى أن أرافقك . وكان من سوء حظى أن ألقى نظرى قبلك إلى مهبط السفح وأن ألفت نظرك الطامح الجنونى إلى هول ما يعدنا عن سطح الأرض . وها انت ذا تعترف أنك بعد تلاوة رسائلى اضطررت إلى النظر فيما أقول فوجدت نفسك محلقا حقيقة على ارتفاع مخيف . وأحسست لحظة الدوار . إلى هنا أوافقك وأوافقك أيضا على قولك ان أخشى ما تخشاه على

رأسك من هذا الدوار هو عندما تهبط إلى مستوى زملائك فى المصنع . نعم ، انى أتوقع لك دوارا قاسيا ساعة النزول يتناسب مع ذلك الارتفاع . أما قولك آسفا انك بدأت تشعر بالوحدة الروحية تنسج أبرادها حولك ، فهو مالا أوافقك عليه . أو لست متصلا بك دائما ؟ بماذا تفسر كتابتى المستمرة إليك ؟ تقول انه كان ينبغى ـ فى لوح قدرك ـ أن يأتى فتى من الشرق ليسبغ بخياله رداء الأحلام على عالم الواقع الذى كنت تعيش فيه .. ! أنا أيضا كان ينبغى لى أن أرى جمال الواقع الناصع فى جوار عقلك الأوروبى المستقيم . ان هزة التصادم بين الشرق والغرب . هى وحدها التى تفتح الأعين المغلقة فى الشرق والغرب ان فى تلاقينا لمعنى أوسع من كل معنى شخصى أو فردى . ان فيه قوة الرمز . ما من مرة احتك فيها الشرق بالغرب الا وخرج من احتكاكهما ضوء أنار

العالم . وما من مرة تلاقى فيها وجه الشرق بوجه الغرب ونظر أحدهما فى عين الآخر الا وأبصر جمال نفسه كأنه ينظر فى مرآة . أليس من العجب يا اندريه انك لم تعجب بكل ما عندكم من آثار الفن والموسيقى إلا بعد أن توطدت بيننا الصلة ؟ لن أنسى سخريتك بى وبخيالى وميولى فى أول عهود تلاقينا . لقد جعلت تهدم كل الأسس التى بنيت عليها حياتى . لقد جعلت تجرد صديقك الشرقى من كل صفة طيبة حتى صفة الفنان التى كان المسكين يعتز بها وقتذاك على نحو مضحك ، لابسا لها لبوسها من معطف اسود وقبعة عريضة سوداء ! لم تترك له أملا واحدا يعيش به . وبعد أن هدمته بلا رحمة قلت له ذات مرة : « والآن أذهب والق بنفسك فى نهر السين إذ لا قيمة لمثلك ولا فائدة ترجى منه فى الحياة ! » ألا تذكر ؟ ومع ذلك شىء عجيب : لم يؤثر فى نفسى كثيرا هذا

الـكلام وابتسمت له ورددت عليـه ردا لطيفا أفرك به بعض الشيء . ألا تذكر ؟ ذلك أنى فى ذلك الوقت كنت أدرك انك لم تفهم بعد روح الشرق . ثم شيء آخـر : هو انى فى ذلك الوقت كنت أقابل المأسوف عليه « ايفان » ذلك الروسى الذى كان يدعم ايمانى بنفسى وبالشرق كلما نالت منى بعض كلمـاتك .

ولـكنى عدت بعد ذلك إلى الشرق . عدت إلى مصر يا اندريه فأصابنى بادىء الأمر ذهول . ذهول عنك وعن كل شيء . كمن وقع من السحاب حقيقة . ثم أخذت أتصفح الوجوه والأشياء حولى . يالها من حقيقة مؤلمة ! رأيت نفسى فى شبه عالم نائم . لقـد شعرت بما قد يشعر به من يهبط سطح القمر الأجرد المعتم . انت أيضا نقلت إلى داءك يا اندريه . فجعلتنى أبصر الواقع المؤلم بعين الواقع . . . .

لقد عشت بضعة شهور بغير نفس ولا ادراك ،

أحاول فهم السخفاء والجهلاء ، وأتمنى لو أستطيع أن أسر بعشرتهم ، وأن أصغى إلى أحاديثهم . لقد قطعت عهدا على نفسى عند ذاك أن لا أتحدث فى غير التافه من الأمور . إلى أن وصلنى منك خطاب ذات يوم تؤنبنى فيه على هذا الخمول وهذا الجمود فكان أثره فى نفسى عميقا . لقد أعاد إلى الذكاء والادراك . وإذا عقلى الذى كاد يخبو بأفيون الشرق يضىء من جديد . وصحوت لحظة أفكر وأتأمل . وانتهى بى الأمر إلى أن النور يأتينى من الشاطىء الآخر . وان الأمل معلق على شخص مثلك يهز لى المصباح من الجهة الأخرى ... ؟

عزيزى اندريه

انى فى حاجة إلى حديثك . تكلم فى أى شيء أو فى لا شيء . اسمعنى صوتك واشبعنى ثرثرة واملأ لى صفحات ... يكفى أن تلقى على الورق خطوطا فتكون لها قيمة ... قيمة نقدية ، على الأقل عندى . ولو انى أعلم انك اليوم لست محتاجا الى نقودى ، فقد صلح حالك وصرت ممن يسيرون فى الحياة بنظام واطمئنان . نعم ان لمجرد الثرثرة قيمة نقدية أحيانا . فانى أذكر يوم قرأت de profundis لأوسكار وايلد أن صحت : هذ كاتب له قلم يبول ذهباً ! اجل حسب

مثله ان يقول للقلم اكتب ، دون قياد من العقل والتفكير ، كما يرخي الفارس للجواد العنان . ان من الكتاب يا اندريه من تجد فيه هذه المزية العجيبة او الموهبة الفريدة : انه معفى من انتقاء موضوع او تخير قضية ، لأن عنده القدرة ان يجعل من مجرد كلامه المرسل ارسالا اشياء عالية القيمة . ذلك ان روحه وحدها هى كل الفن والأدب ، وان سر قوته فى تلك السجية الغنية والفطرة الخصبة . مثل هؤلاء لا ينبغى ان نقول لهم اكتبوا فيما هو منتج اومفيد انما ينبغى ان ننتظر فقط كل ما يخرج من مداد أقلامهم ، كما ننتظر العسل من النحل دون ان نخبره ان فى عمله شفاء للناس . ما زلت تغمز احيانا غمزات خفيفة لما أحمله لك من تقدير ، فتقول لى فى كل لحظة: « ما بالك تحشرنى فى الأدب وتفسد حياة رجل المصنع ! » كلا يا اندريه . ان الأدب لا ينافى حياة

المصنع . لأن الأدب هو الحيـاة . أو التعبير عن الحياة . انه الحيـاة كلها التى تحوى فى جوفها المصنع وغير المصنع . ولقد كان « ايفان » رحمـه الله عاملا وفيلسوفا . انت أيضا صاحب ذوق وفهم . اياك أن تشك فى ذلك . مرة أخـرى أقول لك : « استمع إلى قلبك . فالقلب هو أدق آلة فى جسدنا تسجـل الصدق ! » .

وبعد . هل قرأت كتاب « جوزيف ديلتى » عن « نابليون » ما رأيك فيه ؟

لقد جاء فى البرقيات العامة خبر وقع على رأسى كالصاعقة : هو موت « بول سوديه » كبير نقـاد عصرنا الحاضر فى فرنسا . يا للأسف ! لقد كنا ننتظر مقالاته فى « الطان » كما ينتظر الحكم النهائى لفاصل فيما يختلف فيه النقد والنقاد !

أختم هذه الرسالة سريعا لأن موعد البريد قد

أزف . وسأحدثك فى رسالتى التالية عن « كونسرتو » سمعته فى « الكازينو » ، هو مضحك للغاية ، إذ كان فيه عازف « فرتيوز » . سأجتهد فى أن أصف لك ما وقع . . . ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

وأخـيرا أعلنوا فى البرامج وعلى الحيطان عن عازف « فرتيبوز » يوقع أحد كونسيرتات «باجانينى» فذهبت كالمعتاد . بل بنفس اكثر انتعاشا وأشـد فرحاً . فلقد ظفرنا آخر الأمر بكونسرتو و بفرتيبوز. ووقف المايسترو « بونوى » ونفش شعره بيده قبل أن يومىء إلى فرقته بعصاه . ثم التفت إلى يمـين ثم إلى يسار منتظرا قدوم العـازف العظيم . وذكرتنى هـذه الحركة بمثيلاتها حين كان رئيس الأوركستر ينتظر دخول عازف شهير مثل تيبو أو هوبرمان أو

عازفة مجيدة مثل إيريكا موريني . لقد دخل على نفسى الوهم والابتهاج بهـذا التباطؤ المقصود وحسبت ان العازف الداخل قد أبطأت بهسيارة « الرولز » لحدوث خلل فى الطريق . ولـكن التفـاتة منى إلى باب « التواليت » هدمت كل هذا الخيال . فقد أبصرت رجلا يتحشر فى ردنجوت ـ من المؤكد انها ليست له ـ وعلى صدره رباط رقبة «فاقع» اللون لا يتفق مع سواد الرداء وعلى عينيه منظار غليظ لا يضعه غير سماسرة القضايا ووكلاء المحامين ، وهو واقف يمشط شعره على عجـل بمشط (من الخشب الخشر نفش) . فلمـا رضى عن « قيافته » التى تـكبد فيها ما تـكبد ظهر مسرعا إلى المنصـة وانحنى للجمهور كما ينحنى مشاهير العازفين . ثم التفت إلى « بونوى » ونظر إليه من خلف منظاره السميك نظرة من يقول له : « الأمر سائر على ما يرام ؟ » فرد عليـه الرئيس

بابتسامة . لكن فى شىء من التعالى . وحول نظره بالعصا المرفوعة الى الجوقة . فارتبت فى هذه النظرات واستدرت نحو المنصة فاذا بى أرى مكان «السوليست» خاليا . فادركت الحقيقة . هذا العازف الذى اعلنوا عنه ليس سوى العازف الأول للفرقة هيأوه وموهوه وأدخلوه علينا كأنه عازف « فرتيوز » . على انى مع كل هذا أقول لا بأس . ان « بونوى » رئيس أوركستر ضرورة . ولكنه على كل حال رئيس أوركستر . حقيقة انه يؤدى عمله كما يستطيع وتستطيع له مواهبه الخالية من الشعر والرقة والدقة . فهو لو أدى قطعة مثل قطعة « السحب » لكلود ديبوسى لأسقط على رؤوسنا أحجارا من السماء . انه لايدرك معنى لذلك الذى تسمونه معشر الفرنسيين nuance . وكثير من يتهوفن العميق مغلق عليه ولعل المارش وال allegro forte هو كل ما يمكن لمثله ان يؤديه .

وحتى هذه مادامت فيها عواطف ـ على الأقل عند بيتهوفن — فهو يسقط منهـا العاطفة علي الرغم منه فلا نسمع منها غير الدوى المادى ولانلمس الا الهيكل الخارجى . أين هذا ممن أسمعونا « الغبار الموسيقى » la poussiére musicale . على حد تعبير « هونجر » . واين هذا ممن فسروا موزار وفاجنر تفسيرات تعتبر فى ذاتها خلقاً جديدا . لقد عرفت طريقة « برونو فالتر » مجدد موزارت . وكان بودىلو اعرف طريقة « فان هرسلن » مجدد فاجنر ، وهو من يقولون عنه انه حول ال Grondements souterrains التى تملأ اعمال فاجنر الى موسيقى صـافية نقية كأنها موسيقى موزار . وسواء كان فاجنر حقا بهـذا الصفاء النفسى الذى كان عليه الطفل الألهى ، وهو ما اشك فيه . وسواء كان يريد فاجنر ذلك ويوافق عليه لو كان حيا أو لا يريد . فان المحاولة فى ذاتها تستحق المشاهدة .

لنقول بعدئذ هل نفضل فاجنر الحقيقى أو فاجنر المدخول عليه . انها على كل حال « بدعة العصر » فيما أرى . ذلك الذى يسمونه « تجديد الشباب » للآثار القديمة . أهو تأثير العلم الحديث وحلمه الدائم بإعادة الشباب الى الغدد المنهوكة والجسم الهرم ؟ ان آثار الذهن قد بدأت تتأثر هذه النظريات . وان كلمة « تجديد الشباب » للمؤلفات القديمة تجدها على لسان الكثيرين اليوم . تذكر عمل الشاعر الفرنسى « كوكتو » فى تجديد أعمال شاعر الاغريق « سوفوكليس » ! أى خطر على تراث الأقدمين لو تمكنت من الناس مثل هذه الأفكار . إلا أن يكون فى ذلك العمل حياة للقديم من خلال الأطار الجديد . فهو اذن عملية انقاذ وبعث وتجميل . وعلى ذكر العلم الحديث واثره فى مسائل الفن والفكر . اخبرك بأمر كتاب عجيب هو كتاب ulysses لجيمس جويس . لقد كان لهذا

الكتاب صيت رددت صداه جدران صالونات الأدب بباريس ، حتى قبل ان يترجم الى الفرنسية . وقد عد من قرأه من أدباء الفرنسيين (ونادر من قرأه إذ ذاك) أديبا ذواقة لا تخفى عليه خافية ، شأن كل عمل يتعهد بترويجه واذاعته من يسمونهم les snobs . وهم لا يذيعون الا كل عمل معجز . والمعجز فى هذا الكتاب انه يبلغ نحو ٩٠٠ صفحة من الورق الكبير والحروف الصغيرة وكله إملال وإضجار فهم واثقون من ان الكثرة الغالبة سوف تعجز عن مطالعة هذا الكتاب . غير ان هذا ليس معناه خلو الكتاب من القيمة الأدبية . ان التطويل الى حد الأضجار والأملال قد سبق ان قاسيناه فى كتب مثل « الحرب والسلام » لتولستوى ، وخرجنا مع ذلك فائزين . على ان فكرة جيمس جويس فى هذه القصة الطويلة التى ترتكز على « المنولوج الداخلى »

هى ان يترك بطله يتكلم بكل ما يرد على خاطره ويخرج كل ما يخالج نفسه . كل فكرة فاضلة او سافلة خيرة او شريرة تافهة او قيمة لا بد أن تسجل . فهو يريد ان يقول لنا ان (البسيكولوجية) الصحيحة هى ان لا نتخير اشياء وننبذ اشياء مما يدور فى نفوس الاشخاص . انما يجب ان نثبت كل ما فى نفوسهم حتى مجرد الخواطر الفجائية الطارئة . وهو عمل لا يستقيم معه بالضرورة بناء القصة ولا يسمح به مجال الصفحات المعقول . لذلك ضرب المؤلف الانجليزى بالبناء الروائى عرض الحائط ثم لم يبال ان يبلغ بعدد صفحاته ما شاء وشاءت له الحماقات التى تمر بخاطر بطله فى ساعة من الساعات . وهى ليست حماقة واحدة وليست حماقتين . ولكنه عدد لا ينتهى ولا يمكن ان ينتهى . وهل تنتهى السخافات التى تمر فى لحظة برأس انسان ؟ قد كنت اظن أن مثل هذا

الكتاب يظهر ثم يمر في سلام . ولكن المروع في الأمر نحو ان يصبح فيما أرى (بدعة العصر) فها هوذا كتاب لألدس هكسلي Point counter point ترى فيه احد الأشخاص يبدو متبرما بمعشوقته وقد خبت جذوة حبه ويريد لتلك الصلة بينهما حسن الختام . هذا حسن . ولكنه يحادث نفسه فاذا هذه النفس لا تحدثه فى الحب وحده ولا فى تبكيت الضمير ولا فى التريث والشفقة بل ولا حتى فى الشعر والفن بل تحدثه فى الفلسفة وفى الاقتصاد وفى الاشتراكية ثم بعد ذلك ترتل اشعارا لشكسبير . واذا استمرت هذه النفس فى حديثها على هذا النحو فان المؤلف لن يستطيع قطع هذا الحديث قبل ملء جزءين أو ثلاثة اجزاء . انى لست ساخطا على هذا النوع من التأليف كل السخط . فانى مدرك لقيمة مثل هؤلاء الروائيين، مستطيع ان اقارنهم بالروس من

بعض الوجوه . فان دقة التحليل والنزول الى أعماق النفس والافاضة فى تلوين الأشخاص والاحاطة بكل ما ينبض فى قلوبهم من خوالج تكونت أو ما زالت فى دور التكوين . كل ذلك مشترك بين هؤلاء الانجليز وبين الروس العظام مع هذا الفارق : ان ما عند الروس من نزعة صوفية mystique يقابله ما عند الانجليز من نزعة انتقادية satirique . غير انى لا اظن مطلقا ان نظرة الروس للبسكولوجية الروائية بلغت هذا الحد الذى بلغه الانجليز اليوم . انما هى بدعة تولدت بتأثير علم النفس الحديث . انك قد تجد عند الروس شيئا من هذا «المنولوج الداخلى» ولكنهم لم يضعوا فيه الا كلاما مختارا متسقا مع بناء القصة وجوهر الفكرة . أما أن يلقى فيه كل شاردة وواردة كأنه طبق خضروات منوعة فهو ما لم يصنعوه . ان « السلطة » الروسية la salade russe

من ابتداع الروس حقا ولكنهم لم يدخلوها على مائدة الفن الروائي الروسي !

ارجو منك يا اندريه ان ترتاب قليلا فى أحكامى الأدبيـة والفنيـة . فانا كما تعلم احب بطبعى البنـاء السليم فى كل خلق . ولا شيء يرضى غريزتى الفنيـة مثل الصحة فى البناء ، سواء كان هذا البنـاء لهيكل آدمى أو فنى . وقوة البناء لا تتمثل فنيـاً ابرز تمثيل الا فى فن العمارة وفى السانفونية الموسيقية وفى القصة التمثيلية . ولعلك مستطيع تعليـل ايثـارى للقصـة التمثيلية فهى كما ترى الزم واقرب الى دقة البنـاء من القصة المروية . وقـد تستطيع أخيرا أن تعلل حبي لصحة البناء بأنى معتل بناء الجسد . فنحن لا نحب احيانا إلا ما ليس فى يدنا .

نعم ان الفن عندى بنيان جميل . لذلك لا تنتظر منى ان أحب هذه الطريقة الحديثة فى « المنولوج

الداخلى » . قد أحببها على شريطة : ان نخرج قصة كهذه من دائرة الفن لندخلها فى دائرة العلم . وان نطلق على مثل هـذه القصة اسم « سجل أو ملف نفسية فلان » ان الفن هو كما قال «هكسلى» نفسه فى ذات الرواية : ليس هو الحقيقة وليس هو الواقع بل شىء آخر : انه الحقيقة مقطرة ومصفاة كيمائيا . هذا صحيح . واذا كان الماء يصفى ويقطر للناس فى معمل كيميائى ، فان الحقيقة أيضا تصفى وتقطر للناس فى معمل المؤلف الروائى .. وهذا المعمل هو : الفن . نعم . ان الفن ليس الطبيعـة ولا الحقيقة ، انمـا هو تقطير الطبيعة والحقيقة من خلال «أمبيق» الفنان . اذا كان الأمر كذلك فلماذا تتجه الرواية الحديثة الى ايراد الحقيقة بواسطة سجل يرصد فيه ما حدث فى الدقيقة والثانية داخل نفس فلان كما تسجل الأرصاد الجوية ؟ انى على كل حال لست نادما على قراءتى هذه

القصة...

فلقد جملتنى استكشف فى نفسى القدرة على المطالعة فى الانجليزية مباشرة . نعم أن تركى هذا اللغة أعواما طوالا لم يؤثر الا فى قدرتى على المحادثة بها . لماذا اذن انتظر ترجمة مؤلفات برناردشو الى الفرنسية وانا مستطيع فهمه فى لغته الأصلية . انه الكسل ولا شىء غير ذلك . انى كسلان بالطبع . ولكنى الآن أقرأ بالفعل برناردشو فى الانجليزية واتذوق سخريته ولذعه وفكاهته واستعذب أسلوبه السهل السلس ذا الروح والرائحة ...

على ذكر الأدب الانجليزى أحب أن أقول لك أمرا لفت نظرى منذ غرقت فى دراسة هذا الأدب . انه أدب مغامرات . ولا يجب أن يطلق عليه غير هذا الوصف : مغامرات بأوسع معانيها وأجلها وأشرفها فأعمال والتر رالى وسكوت ودانيال

دفو (روبنسون كروسو) وروبرت لويس ستيفنسون (جزيرة الكنز) هى مغامرات بحرية . وأعمال ديكنز وجالسورثى هى مغامرات اجتماعية . وأعمال شكسبير وبيرون مغامرات نفسية انسانية . وأعمال ماكولى وكارليل مغامرات تاريخية . وأعمال ويلز (فى قصصه العلمى) وبرنارد شو خصوصا فى Back to Methuselah ليست سوى مغامرات ذهنية . ان الأدب الانجليزى مهما تشرحه تجد روحه وجوهره فى كلمة « المغامرة » لعل هذه الجزيرة المنعزلة قد طبعت نفوس أهلها بهذا الطابع الغريب : حب السفر عبر البحار بحثا عن المجهول : بحار الأرض أو بحار المجتمع أو بحار الماضى أو بحار النفس أو بحار العقل ...

هذا لا تجده فى الأدب الفرنسى مثلا . انه أدب « الشكل » la forme فى جماله الساحر . أدب المحادثات اللبقة النبيلة ، أدب التفكير الرائق الهادىء ، أدب

التعبير الرائع والمنطق البارع . هو أدب الوطن الفرنسي والصالون الفرنسي والصيحة الفرنسية القائلة ان « باريس » هي عاصمة الكون ولا شيء وراء باريس . بالاختصار هو أدب الاستقرار لا أدب الضرب في البحار ...

وبعد . تقول لي انك سرت في جنازة المأسوف عليه « بول سوديه » وانك مررت مع الجمع حول التابوت وتناولت قمقما فضيا حركته في الهواء بعلامة الصليب ونضحت به الجثمان ، ثم سلمته لمن خلفك في الصف . ثم تقول انك كدت تضحك فتسخط عليك الناس لأنك تذكرتني فجأة وأنا في مثل هذا الموقف يوم تشييعي جنازة زوج بنت مدام شارل وما وقع لي بالتمام من أشياء تثير الابتسام . اه لا تذكرني يا أندريه . لقد كان حقا يوما محرجا لكنه انتهى بسلام .. ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

اليوم الخميس ، ولم تصلنا رسالة الخميس . وقد عودتنا ذلك ووعدتنا به . هلا رأيت بول سوديه ومواظبته على ارسال مقالات الأربعاء لجريدة « الوقت » عشرات الأعوام بانتظام، لم ينقطع فى خلالها إلا لموتين : موت زوجته وموته هو ! وهل تظن أنك أقل من بول سوديه فى « وقتى » أنا ؟ على أنى أسأل لك عمرا أطول من عمره ، وأعطيك أجرا أكثر من الأجر الذى كانت تعطيه اياه جريدة « الطان » لو كنت تقدر قيمة الود ا تستطيع

أن تقول انى أعيش طول الاسبوع على رسالتك فاذا كنت تريد أن تحرمنى غذائى الأسبوعى فأنت وشأنك . وبعد فلنتحدث فى أى شىء . قرأت مقال « فرنان فندريم » فى پول سوديه . وهو خصمه المعروف فى المناضلات الأدبية . أى جبن واى نذالة ! مقال لو انه كتبه وبجرأ على نشره فى حياة الناقد العظيم لما استطاع الاقامة بعدها فى فرنسا يوما واحدا ولكنه الآن يقول ما يريد لأن الميت لا يستطيع جوابا . لقد جرد سوديه من كل حسنة وألصق به من النقص ما يخرجه عن وظيفة ناقد . ولكن أعجب ما جاء فى مقاله عن بول سوديه قوله ان الجانب الفنى la technique فى الأعمال الأدبية كان يفلت منه دائما لأنه لم يمارس بنفسه التأليف من حيث هو خلق فنى ؟ ! فما قول فاندريم هذا فى فلاسفة الألمان ممن نقدوا الفن من « عمانويل كانت » إلى «فردريك

نيتشه » وما قوله فى les esthéticiens الذين شرحوا لنا ونقدوا فن فيدياس وپوليكليت وبراكسيتيل وهم لم يصنعوا قط تمثالا من الطين أو العجين ؟ وما قوله فى (جول لمتر) و (سارسى) و (تين) وقد قضوا حياتهم ينقدون فنونا لم يمارسوها قط بأنفسهم. حتى العرب ونقاد الشعر العربى فى آدابنا (مثل «الأصمعى» و « حماد عجرد ») لم يمارسوا هذا الفن مع روايتهم لكل ما قيل فيه . وإنى لأذكر قول أحد نقاد العرب هؤلاء وقد سألوه (كما سأل فاندريم بول سوديه) لماذا لا يقرض الشعر ؟ فأجاب : أنا كالمسن يشحذ ولا يقطع . ولكن فاندريم يريد أن يقطع أوصال جثة خصمه وكفى !

انى لم أزل أطالع رسالتك الماضية فى اعجاب . ان فيها أشياء أقرؤها ببطء فتؤثر فى نفسى تأثيرا شديدا . ذلك انها تجعلنى أتصور أنى مازلت أقيم فى

حجرتى بشارع بلبور . وا أسفاه ! يخيل إلى أنى نسيت رقم الحجرة فى الطابق الخامس . أظنها كانت رقم (٤٨) . لأنهـا (هى) كانت تقطن الحجرة رقم (٣٨)... انى إن نسيت رقم حجرتى فلن أنسى مطلقـا رقم حجرتها . أما الببغـاء ... آه يا اندريه . ترى أين هو الآن ؟ أو لم يزل يحمـل اسمى كما كان ؟ .. فيظل بذلك اسمى يردد صداه فى باريس ... على الأقل حتى يموت الببغاء ! انى أعرف أن هذا الطائر طويل العمر ! نحن معشر المصريين نفـكر دائما فى تخليد أسمائنا . ولقد اتخذ جدى الأهرام لهذا الغرض . ولـكنى أنا اكتفيت باتخاذ ببغاء ... على قدر مالى واستطاعتى ألا ترى أنى مصرى بالدم والوراثة ؟ أندريه... اكتب إلى كثيرا ... ذكرنى بحجرتى فى شـارع بلبور ترى من يقطنها الآن ؟ أحد العمال ولا شك أو احدى العاملات . فهذا حى عمـال وعاملات . ومن يدرى

فقد يكون من سكانها اليوم محبان عاشقان . . أو زوجان سعيدان ... أما أنا مع الأسف فلم أعرف فى هذه الحجرة غير حياة شبه زوجية فاترة مع ساشا شوارتز . وحياة حب مع « إيما دوران » لم يدم هناؤه طويلا . . م؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

تسألنى من هى ساشا شوارتز ؟ عجباً ؟ ألا تذكرها ؟ أو لم اقص عليك قصتها من قبل ؟.. أهان أمرها على بهذا القدر ؟ أم انى لا أحب أن أذكر دائما غير القصص الذى لم يتم ولا يمكن أن يتم .. ؟ ! حدث ذلك يا سيدى فى مساء يوم جميل جلست فيه مع مسيو هاب إلى مائدة مشرب صغير bistro فى مونمارتر . وكنا نتحدث فى أمر حوار صغير كنت قد كتبته ودفعت به إليه ليرى رأيه فيه. فرآه خفيف الروح قوى التركيب سلساً سائغا

يستلب لب القارىء استلابا ... وقال لى : « انى أراك قد اعتصرت موليير وبومارشيه وماريفو اعتصاراً ! » ففرحت بقوله هذا كثيرا وطلبت كأسا أخرى من (البرنو) ... وما كدت أتناول منها جرعة حتى دخلت المشرب غادة ذات جسم ذكرنى بتمثال افروديت . وكان فى صحبتها شاب برنزى اللون جميل الطلعة كأنه أبو لون ... ولست أدرى أسكرت من البرنو أم من أطراء صاحبي أم من روعة هذه الغادة . . . كل ما أذكر أنى تمايلت على مسيو هاب صائحا : « ناد الجرسون واطلب سكينا ! » فقال دهشا : « سكينا ؟ تصنع به ماذا ؟ فقلت : « أقتل نفسى عند أقدام هذه المرأة حبا وجنونا وغراما ! . . » فالتفت (هاب) إلى المرأة ثم إلى صاحبها وقال لى : « صدقت . ولكنها كما ترى ذات رفيق وأى رفيق .. لا أمل لك أيها الصديق ... إذا أصررت على السكين فانى أنادى لك

الجرسون ! .» ولبثنا ساعة ننظر إليها وتتحسر . . . ثم نهضنا وانصرفنا كل إلى شأنه . ومضت أيام قلائل وإذا مسيو (هاب) في أثرى يبحث عني في مظانى، حتى عثر بي فبادرني صائحا : أين أنت ؟ اين أنت ؟ أيها الرجل السعيد ... افرح بسرعه فان عندي لك خبرا سارا ... انها لك منذ اليوم خالصة مخلصة ! . فلم أفهم مراده بادىء الأمر وقلت له : عمن تتكلم ؟ فقال : عنها هي .. عن تلك المرأة . فقلت : أي امرأة ؟ فضاق صدره بي : عجبا لك . . . أي امرأة ؟ المراة التى رأيتها في الشرب منذ أيام . . . فتذكرت كل شيء وصحت : حقا .. حقا ... أخبرني ماخبرها ! فقال : « ياللحظ عندما يواتي الانسان! لقد كنت بهذا المشرب البارحة واذا بي ألمح امرأة جالسة إلى مائدة بجواري أمامها (بوك) من البيرة لم تمسه شفتاها . وقد أخفت وجهها في منديلها

وطفقت تبكى بكاء مراً . . فعجبت لأمرها ولبثت أرقبها حتى تبينت آخر الأمر أنها صاحبتنا (افروديت) فتحينت منها فرصة وحادثتها . ولم أزل بها حتى اطمأنت إلى وكشفت لى عن بلائها : صاحبها البرنزى اللون وهو أسبانى يدعى (جارسيا) قد هرب إلى بلاده وهجرها بلا مأوى ولا نقود ولا معين . وهى أجنبية هى الأخرى ـ ألمانية أو روسية لست أدرى على التحقيق .. اسمها (ساشا شوارتز) . وهى تجيد الفرنسية . وقد كانت تعمل (سكرتيرة) فى إحدى وكالات السفر ، فالتقت بهذا الشاب الاسبانى فاستلب لبها وأخرجها من عملها . وختم قصته معها على هذا النحو . وليس من اليسير أن تجد سريعاً عملا يقيها شر الجوع . فهى لا ترى فى رأسها غير أفق حالك تبدو منه فكرة الانتحار كأنها شمس سوداء !.. فبادرتها صائحا مرتاعاً : تموتين ؟ انت ؟ مهلا

يا سيدتى مهلا ؟ تموتين وعندى شخص يموت فيك حباً وهياما وغراماً ! » . فنظرت إلى بعينين كلهما دهش واستفهام . فأخبرتها بخبرك وضربت لها موعدا مساء اليوم بذلك المشرب لأقدمك إليها . كل أمل هذه المرأة الآن هو أن تجد لها مأوى ومعينا . ولاشك عندى فى أنك مستطيع أن تحقق لها هذا الأمل ... » تصور ذهولى يا اندريه وأنا أسمع من مسيو « هاب » كل هذا ... لقد حسبته يمزح . ولكن الموعد حانت ساعته . فلم أر فائدة فى اللجاج. فجلست معه أنتظر . وإذا بالفعل ... أبصر لدهشتى « امروديت » تدخل علينا فى حال كسيره . وقد أفسدت الدموع أهدابها وأنساها الحزن الالتفات إلى هندامها . فنهض « هاب » لاستقبالها . ونهضت أنا أيضا كالخجل المأخوذ . وحياها صاحبى ألطف تحية وقال لها باسما وهو يقدمنى إليهـا : « كنت تريدين

الانتحـار يا آنستي . فها هو ذا شيء أهون قليـلا من الانتحار .. » فنظرت إلى الفتاة بابتسامة وديعة فيها أثر الحزن وفيهـا أيضا الاستسلام . وكأن كل شيء فيها ينطق : « ليس الآن أوان الفحص والفرز والاختيار » وتركنا « هاب » وقد رأى أن مهمته قد انتهت . فلبثنا وحدنا لحظة صامتين . لا أدري ماذا أقول ... إلى أن سألتهـا آخر الأمر عن أمتعتها فقالت لي انها مُودعة عنـد صديقة لها متزوجة . أضافتها الليالي السابقة . . ولم يعد من اللائق أن تفرض ضيافتها على أسرة أكثر من ذلك . وكانت تلك الأسرة تقطن ضواحي باريس والوقت ليـلا . فرأينا أن نرجيء طلب الأمتعة إلى الصباح وذهبت بالغادة الحزينة إلى أحد المطاعم فتعشينا . وأنا أحاول اضحاكها والتسرية عنها . ثم قدتها إلى مسرح تعرض فيه رواية « فود فيـل » مفرحة . فانتعشت قليلا .

وضحكت مع الضاحكين . وخرجنا وقد انست إلى بعض الشيء . . بدأت تتوطد بيننا الألفة . وذهبت بها إلى حجرتى بشارع بلبور . فسرت كثيرا بالمطبخ الصغير الملحق بالحجرة : وما فيه من آدوات لشى اللحم وجهاز لموقد يشعل بالغاز . وسألتنى أن أعيرها تلك الليلة « بيجاما » مما أرتديها للنوم . ففعلت . وتشاغلت بالنظر فى كتبى المكدسة فوق المكتب . ولك أن تصدق أيها الخبيث اندريه أو لا تصدق . فو الله لم أحاول اختلاس النظر إليها وهى تخلع ثيابها ولا أذكر أين فعلت ذلك . هل خلف خزانة الثياب أو فى المطبخ . كل ما أذكر أنها طلعت على فجأة وهى مرتدية « البيجاما » ويكاد نهداها البارزان يفتقان الرداء . فوقع الكتاب من يدى . فابتسمت . ابتسمت افروديت . وكانت ليلة لا تنسى ... وبزغ الصبح . وفتحت عينى وقد راحت السكرة وجاءت

الفكرة . ونظرت إلى تلك المرأة النائمة فى فراشى وقلت لنفسى : « ماذا أنا صانع بها ... اليوم الأحد وهو يوم زيارتى المعتادة لمتحف اللوفر . هل أصحبها؟ انها لن تطيق المكث فى هذا المتحف ست أوسبع ساعات كما أفعل . وإذا احتملت فانها لن تستطيع الوقوف ساعة أمام الصورة الواحدة كما أصنع وإذا فعلت فانها لن تسكت عن بعض التعليقات السخيفة التى تبدد جو تأملاتى وتفسد على نظام تفكيرى . ثم انها ستغير برنامج حياتى . انى الآن آكل وأعمل وقتما أريد وحيثما أريد . ان حياتى غير المقيدة بمكان ولا بزمان ولا بانسان ستصبح منذ اليوم داخل إطار محدود من صنع هذه المرأة . انها عبء وتبعة . إنى لم أخلق لأسير فى الحياة وامرأة معلقة بذراعى! ونهضت من فراشى على عجل وارتديت ثيابى وكتبت كلمة تركتها لها فوق المكتب خلاصتها : « انى رجل .

بوهيمى لا يصلح لرعايتك والسهر على راحتك . فأرجو أن تحليني من تبعة إسعادك . . فاني لست لهذه النعمة باهل .. » .. وألقيت عليها نظرة أخيرة وهي فى نومها العميق المطمئن ... وانصرفت . ذهبت توا إلى مسيو «هاب» وأخبرته بما حدث فكاد يصعق. فهدأت من روعه وضاحكته قائلا : « لا تنسى أنى رجل شرقى متوحش. المرأة عندى يجب أن تحبس فى «الحريم» أو على الاقل لا يكون لها دخل كبير فى حياتى . اذا ارادت « ساشا » أن تتخذ من مسكنى مأوى لها فلا مانع لدى . . . على شرط أن تتركنى حراً . . فلا تخرج معى . ولا تشعرنى بأن لها فى حياتى وجودا . » ففهم « هاب » مرادى وقال : « لا بأس. أظنها ترضى بهذا الشرط . ولكن نفقات طعامها ؟ فقلت له : « فى مقدورى أن أعطيها كل يوم ثمانية فرنكات

أو تسمة(١) «فقال «هاب»: «لغدائها وعشائها معاً؟»
قلت « نعم » . فقال: « اجعلها عشرة فرنكات » ...
فقبلت . وتعهدهو بأن يلقاها فى ذلك اليوم ليعرض
عليها هذا الوضع الجديد . وانصرفت أنا إلى متحف
اللوفر ففرقت طول يوى فى قاعـة الفن الاغريقى
متنقلا بين تماثيل «پالاس» و «ابولون» و «فينوس»
فى اوضاعها المختلفة .. آه يا اندريه ... ان فن الاغريق
هو تجميل الطبيعة إلى حـد اشعارها بنقصها . . .
لـكأنهم يريدون ان يقولوا للطبيعة : انظرى . . كان
ينبغى ان تصنعى هكذا ! .. ومضى أكثر النهـار
فدلفت إلى قاعة الفن المصرى القـديم . ولا يفصل
بينها وبين قاعة الاغريق ـ كما تعلم ـ غير باب صغير .
ما كدت اتخطى العتبة حتى شعرت بفرق عجيب ...
انه عالم آخر ... ان فن مصر القديمة هو تحد صارخ

---

(١) أى ما يعادل وقتئذ ثمانية قروش مصرية .

للطبيعة .. لكأنهم يقولون للطبيعة : انظرى . . . لا شأن لنا بك . . ولا بمخلوقاتك . إننا نستطيع من مخيلتنا ومن تفكيرنا أن نخرج مخلوقات أخرى غريبة عجيبة لم تخطر لك علي بال . . . » . على أن الذى استلفت نظرى فى هذا الفن هو أن أسلوبه قد أوحى الى أسلوب الفن الحديث فى العصر الحاضر إلى حد كبير . وخرجت من اللوفر وأنا أقلب فى رأسى الملاحظات والمقارنات . . . وذهبت إلى مطعم صغير أتناول عشائى . . . ثم عدت إلى مسكنى فوجدت المسكينة « ساشا » قد غادرته تاركة لى هذه الكلمة فوق المكتب : « سيدى . . . انك لاتريدنى . وهذا هو كل مافى الأمر . ربما خيبت ظنك . ولكنى أبحث عبثا واستعرض فى ذاكرتى كل ماحدث أمس . . . فى المساء والليل علنى أحد اللحظة التى أكون قد خيبت ظنك فيها . وليس فى مقدورى

سؤالك أو الاستفسار منك . فلقد ذهبت تاركا لى تلك الكلمة التى تدعونى فيها ـ على نحو ظاهر ـ إلى الرحيل . اذن ... فلم يبق لى إلا أن أسير فى طريقى ... أود على كل حال لو حدثتك مرة أخرى . فاذا لم تر بأسا فى ذلك فانى أرجو منك أن تبعث إلى كلمة بعنوان صديقتى المسطور فى أعلى خطابى .. »

فى الحق يا اندريه انى تألمت وندمت . لقد كان تصرفى خاليا من الرفق والرحمة . ولبثت أفكر وانا اجيل النظر فى حجرتى الخالية ... ان وجود هذه المرأة ها هنا ليس عبثا بالقدر الذى تصورته . انها كانت تملأ المكان على كل حال بعطرها النسائى فتغير قليلا من هذا الجو المغبر بتراب الكتب . ما أجملها عندما كانت مرتدية ثوب النوم الذى أعرتها اياه البارحة . ليتها تعود . ما أوحش الليل بدون امرأة ! وقضيت ليلة مضطربة . وفى اليوم التالى ذهبت إليها فى مسكن

صديقتها ، وحملتها هى وامتعتها فى سيارة وعدت بها إلى حجرتى بشارع بلبور . واخبرتنى فى الطريق انها التقت بمسيو هاب فى اليوم السابق وانه أخبرها بالشرط والنظام الجديد . فعاهدته على القيام بتنفيذه على ادق وجه. وهكذا استقر بنا الحال أياما: وكان لحجرتى مفتاحان استبقيت واحدا واعطيتها الآخر . فاذا كان الصباح تركت لها فوق مكتبى الفرنكات العشرة ثم انطلقت حرا طول يومى فلا أرى لها وجها إلا ليلا .. هنالك أحيان .. يحلو لى فيها ان ألزم حجرتى لأكتب الساعات الطوال ... فما كانت تنبس بحرف . بل كانت تقرأ . تقرأ كل ما يقع تحت يدها من كتبى المكدسة . لقد عجبت اول الأمر لكثرة مطالعتها ولأجادتها لغات عدة ... إلى ان قصت على نشأتها ... وعلمت انها ابنة مدير احدى شركات السكك الحديدية فى ألمانيا ... فلما

انهارت الشركة بعد الحرب بانهيـار المارك والنظام الاقتصادى الألمانى . . انهـارت اسرتهـا أيضا ... فمات أبوها وتشرد اخوتها واخواتها فى أرجاءاوروبا.. ونزحت هى إلى فرنسا حيث وجدت ذلك العمل الذى شغلته فى وكالة السفر .. حتى فقدته هو الآخر جريا وراء قلبها .. انها بوهيمية هى الأخرى من الطراز الأول . على أنهـا لم تفهمنى أيضا كما كان ينبغى . فانه لم يمض على نظامنا هـذا عشرة أيام حتى نسيت مراميـه واغراضه . وإذا هى تترك لى فوق مكتبى هـذه الكلمة : « عزيزى .. انك تتغيب طويلا . لـكأنك تتعمد الهرب من حجرتك ومن وجودى. على الرغم من الجهـد الذى أبذله حتى لا اضايقك او اثقل عليك . وحدتك هـذه تـكاد تشعرنى بأنهـا مظهر استياء منى . وانى لأبحث عبثا عن السبب . يا صـديقى العزيز .. انى لأرجوك من كل قلبى ان

تخبرنى عما لا يعجبك منى . قلها بصراحة .. فربما كان فى الامكان رتق رباط الثقـة والاطمئنان الذى يصل احدنا بالآخر . هذه الثقة ... وهذا الاطمئنان الذى تخلو منه نفسى فى هذه اللحظة . . ربما كنت مخطئة فى هذه التقديرات ربما كنت مسرفة فى الوهم فأخذت شغلك بعملك على انه شغل عنى . مهما يكن من أمر طمئنى بكلمة . إنى حزينة جدا . إنى خارجة استنشق بعض الهواء وأرفه عن نفسى قليلا . ولكنى أرجو أن تكون على ثقة من أن إخلاصى هو لك وباق لديك . . . » الواقع يا اندريه انى عجبت لهذا الخطاب. إن الاخلاص او الحب او اى عاطفة من هذا النوع لم تكن داخلة ضمن الشرط بأى حال .

وإنى لأعلم أن « ساشا » لم تحبنى على الاطلاق حقيقة هى لم تذكر لى شيئا عن صاحبها الاسبانى منذ مجيئها . ولكن ليس معنى ذلك انها نسيته . لقد

كانت تقرأ ذات ليلة فى الفراش كعادتها قبل النوم . وكنت انا أكتب على مكتبي او اطالع . وإذا بى اسمع صوت عبرات مكتومة فرفعت عينى فوجدتها تحاول اخفاء بكائها . فسألتها عما بها . فكانت صريحة وقالت إن يدها وقعت تلك الليلة على « دون كيشوت » واقاصيص نموذجية من أعمال سرفانتز فغمرها فى ذكريات . . ثم قالت وهى تمسح دموعها بيدها : « لم أكن أعلم أنى اجد هنا كتبا اسبانية » . فقلت لها : « عجباً ! او كنت تريدين ان اتجاهل الأدب الاسباني وأستبعد مؤلفات « سرفانتز » ، ومسرحيات « كالدرون » وكوميديات « لوب دى فيجا » لأن لك خليلا اسبانيا ؟ » . اجل يا اندريه .. لم يكن بيننا حب قط .. ولا أذكر اننا تبادلنا كلمة واحدة فيها حرارة العاطفة الملتهبة . هذا شىء لا يمكن ان يحدث مع امرأة موجودة . موجودة امامى فى كل وقت .

ان اللحظة الوحيدة التى احببتها فيها حقا هى ساعة دخولها المشرب اول مرة مع صاحبها الاسبانى . انها كانت رائعة . لأنها كانت شيئا فى السماء مثل كوكب يتلألأ لا يمكن ان تمتد اليه يدى . ولكن هذا الكوكب ما لبث ان وقع فى كفى فاذا هو مصباح ضئيل .. يحتاج الى يدى القاصرة لتملأه بالزيت وتحميه من التحطم والسقوط . انى لم ازل احب « إيما » لأنها شىء بعيد .. غير موجود فى كل وقت .. يرتفع إلىّ غناؤها من نافذتها كأنه شعاع يأتينى من بعيد . انها اعطتنى بعض اسرار نفسها وجسمها .. ولكنها مع ذلك ليست فى يدى. شأنها شأن الطبيعة التى تعطينا وتستعصى علينا . ان الحب قصة لا يجب ان تنتهى .. قصة إيما مستمرة لا تريد ان تنتهى . ان الحب مسألة رياضية لم تحل ... ان جوهر الحب مثل جوهر الوجود . لابد ان يكون

فيه ذلك الذى يسمونه « المجهول » او « المطلق » .
ان حمى (الحب) عندى هى نوع من حمى (المعرفة) واستكشاف المجهول والجرى وراء المطلق . ماذا يكون حال الوجود لو ان الله قذف فى وجوهنا نحن الآدميين بتلك المعرفة او ذلك المطلق الذى نقضى حياتنا نجرى وراءه ؟! لا استطيع تصور الحياة يومئذ . انها ولاشك لو بقيت بعد ذلك لصارت شيئا خاليا من كل جمال وفكر وعاطفة . فكل ما نسميه جمالا وفكرا وشعورا ليس الا قبسات النور التى تخرج اثناء جهادنا وكدنا وجرينا خلف المطلق والمجهول . لو ان « ايما » قبلت ان تترك حجرتها كما عرضت عليها وتأتى لتقطن معى فى حجرتى لكان حظها عندى حظ « ساشا » . هنا الفرق بين (الغرام) و (الزوجية) . انى ادرك الآن لماذا يفتر الحب الملتهب بين الخليلين إذا تزوجا . وقد

يعود إلى سابق اشتعاله اذا عادا خليلين ، لكل منهما حياته المنفصلة . ان الانفصال هو الذى يغرى بالاتصال . . لهذا كله كانت حياة (ساشا) معى اقرب إلى الحياة الزوجية الخالية من اى عاطفة قوية . فما معنى خطابها هذا الذى كتبته اليوم ؟ اتراها انوثة المرأة تنسى كل شرط وكل اتفاق ولا تذكر الا الرغبة فى أن تشغل قلب الرجل ؟ .. وماذا أنا قائل لها ؟ ما دمت أوقن بأنها لا تحبنى... وطويت رسالتها وطرحتها جانبا . ومضيت فى عملى ومطالعاتى . . . إلى أن عادت ومعها نسخة من صحيفة يومية . وأخبرتنى مبتهجة بأنها وجدت لنفسها عملا . فلقد قرأت إعلانا فى الجريدة لأحد المسارح الراقصة يطلب فتيات لهن أجسام جميلة تصلح لرقص المجموعة . فتقدمت فى الحال وكان نصيبها الفوز . فما من شك ان

جسمها يعد خير نموذج لجسم المرأة الجميل . على أن المسرح لن يعطيها بادئ الأمر اكثر من خمسمائة من الفرنكات فى الشهر . وقالت لى وهى تخلع قبعتها وتنثر فى الهواء شعرها الأشقر :

« لا استطيع كيف اشكرك على معونتك لى . ولكنى أرجو منذ الغداة أن تكف عن منحى الفرنكات العشرة . على انى لم ازل بعد فى حاجة الى مشاركتك حجرتك . . لأن ربحى كما ترى لايسمح لى حتى الآن باقتناء مسكن خاص . . » فقلت لها :

« ياعزيزتى . . الآن فهمت سر خطابك . . . أحسبت انى اهرب منك استياء وتبرما وضيقا بعبء العشرة الفرنكات ؟ ! . . فخرجت تبحثين عن عمل ؟ على كل حال . انت حرة فى شئون حياتك . وانى دائما عند تعهدى بأن أكون فى معونتك وخدمتك على الوجه الذى تريدين » . واستمرت حياتنا المشتركة

تجرى فى مجرى هادىء . فكلانا له شغل منفصل عن الآخر . وحياة مخالفة لحياة الآخر ... لايجمعنا إلا الليل فى فراش واحد . ولم يخطر على بالى حتى مجرد التفكير فى نوع عملينا أو المقارنة بين حياتى وحياتها منذ ذلك اليوم . فأنا طالب قانون وفلسفة وعلم وفن وأدب وهى راقصة فى مسرح راقص من طراز « الفولى برجير » أو « المولان روج » ... لست اذكر اسمه . . ولعلي لم أسألها عنه ... ولابد انها أخبرتنى باسمه وبخبره فلم احفل بذلك ولم أع ما قالت ولم انصرف بذهني عما كنت اقرؤه وقتئذ او أفكر فيه .. ولم اشعر أنا بتغيير فى نظامنا سوى انقطاعى عن منحها أى نقود . لقد حدث تغيير فى نظام حياتها هى . فهى تعود إلى الحجرة كل ليلة بعد التمثيل فى آخر قطار من قطارات المترو . تعود « بالماكياج » مطلية من رأسها إلى قدميها بالأحمر والأبيض .

فليس فى مسرحها ولا فى بيتنا حمام . فتدس جسمها المطلى فى الفراش على هذه الصوره ... لقد انزعجت حقـا أول الأمر يوم نهضت فى الصباح فابصرت جسمى انا الآخر قد نضح بتلك الالوان ... ولكن انزعاجى لم يقف عند هذا الحد . انها تعلمت التدخين بالطبع وأنا أكره رائحة الدخان ... فالويل لى عند ما كنت آوى إلى فراشى ذات ليلة مبكراً ... انهـا كانت تعود آخر الليل والسيجارة فى فمها وتسير فى الحجره على أطراف قدميها حتى لا توقظنى وتطرح معطفها الثقيل عن جسمها العارى ـ إلا من «مايوه» الرقص ـ وتذهب إلى المطبخ فتـأتى بشطيرة خبز اخلها سردينة ـ فهى جائعة . وتجذب من بين كتبى قصه لفلوبير أو بلزاك أو عثيليـة لبورتوريش أو لنورمان ... فهى مقيمة على عادة القراءة قبل النوم ... وتضىء المصبـاح الكهربائى على رأس السرير . ثم

ترفع عنى الغطاء برفق وحــذر ... وتدخل الفراش إلى جانبى بسردينها ودخانها وكتابها وأحمرهاوأبيضها وتحسب بعد ذلك كله أنها حرصت على عدم ايقاظى وازعاجى ! .. لطالما نهضت لأنهرها وأطلب إليها أن تبطل هذا كله وتنام . فكانت تستعطفنى وتستمهلنى حتى تتم قراءة القصــة ! « تتمين قراءة القصة ؟ الليلة ؟ ! .. » الواقع انها كانت سريعة القراءة إلى حد كان يدهشنى . انها تتم قراءة القصة التمثيلية فى ساعة واحــدة . وأنا الذى أقرؤها فى يومين أو ثلاثة . ولــكن هنالك فرقا هائلا بين قراءتى وقراءتها انها تقرأ للحكاية فى ذاتها . أما انا فلا تعنينى حكاية الكاتب بل يعنينى فنه وسر صناعته وطريقة أسلوبه فى البناء وخلق الأشخاص ونسج الجو واحداث التأثير . انى أعيد أحيانا قراءة الفصل الواحد .. بل الصفحة الواحدة .مرات... لكم أعدت قراءة موليير لا لشىء غير

دراسة طريقته فى تقديم الأشخاص ورسم أخلاقهم..
تلك الطريقة التى تختلف أحيانا وتتغير فى كل رواية
من رواياته .. لذلك لم نكن قراءة « ساشا » تصلح
أساسا حتى للمناقشة ومبادلة الرأى . . وما كنت
أجنى منها إلا ذلك المصباح المسلط على رأسى والدخان
الذى يضيق به صدرى فى ذلك الهزيع الأخير من
الليل . انها كانت أحيانا تخشى غضبى فتقفز فى
مطالعتها فصلا أو فصلين وتصل إلى خاتمة الكتاب
سريعا . ثم تطفىء النور . وتجذب الغطاء فوقها جذبة
تتركنى أنا فى العراء . فلا أتمالك نفسى . وأقرصها
قرصة تصرخ منها فى جوف الليل . ويأتى النهار .
فتستيقظ فى الضحى . وأبقى أنا فى السرير كسلا ...
وتسرع هى إلى ثياب الخروج فترتديها لتذهب
إلى المسرح فى ميعاد التجارب « البروفات » ...
لبثنا معاً فى هذه الحياة ثلاثة شهور . لم يختل

نظامها أو قل « فوضاها » قيد شعرة . حتى تعودت احتمالها . . فندر غضبي أو ضجري . وبدأت هى تهتم بما أعمل بعض الاهتمام فكانت تسألنى أن أطلعها على ما أكتب من حوار أو قصص . . فما كنت أقبل ذلك . . لست أدرى لماذا . . . أما هى فكانت تسألنى رأيى فى بعض الحركات الجديدة لرقصها . فكنت أتبرم بذلك أيضاً فهذا ليس فى عرفى رقصاً فنيا . الرقص الفنى عندى هو « بافلوفا » و « فوللر » و « ايزادورا دونكان » . ورقص الجوقات والمجاميع فى الأوبرات الرفيعة أو فى « الباليه الروسى » أو حتى فى الرقصات الدينية التى نراها منقوشة فى الفن المصرى والهندى . ولكنها كانت تحرك سيقانها ورأسها وذراعيها فى الحجرة فلا أجد مفراً من النظر . كنت أقول لها ان رقصها هذا فى المجموعة جماله ليس فى ذاته بل فى التناسق العددى لكميات الأذرع والسيقان

التى تتحرك فى وقت واحد . وليته مع ذلك كان بالروح الفنى المعروف فى راقصات المعابد الهندية ؟!

ولقد ألحت على الحاحاً شديدا فى أن أذهب مرة لمشاهدتها على السرح .. وأحضرت لى تذاكر مجانية . فلم أجد من نفسى يومئذ حافزاً على الذهاب. وليتنى ذهبت ... وكاد ينتهى الشتاء فجاءتنى ذات يوم تقول ان المسرح سيوفد الفرقة الراقصة لتقوم برحلة فى « نيم » و « اورانج » و « افنيون » فى جنوب فرنسا . وقد تستغرق الرحلة شهراً أوشهرين. وجعلت تتجهز للرحيل وهى ترجونى وتزين لى أن أذهب معهم فى هذه الرحلة فضحكت للفكرة :

« اذهب فى رحلة الراقصات بأى صفة وعلى أى وضع ؟ أبصفتى صديق الراقصة .. هذا جميل جدا ... ومن يدرى ربما عدت من الرحلة وقد عينت نهائيا راقصاً بالفرقة أو شيئا من هذا القبيل ؟

كلا يا عزيزتى ساشا ... إنى لا أستطيع أن أترك باريس واللوفر والكتب والحى اللاتينى ومونمارتر وبلبور .. اذهبي أنت وسيرى بمفردك فى طريق حياتك وإنى أتمنى لك التوفيق والنجاح . »

وودع أحدنا الآخر وداعا حارا . وشعرت فى تلك اللحظة بشيء من السعادة لعودة حريتى الكاملة إلىّ ... ووحدتى المطلقة ... ؟

الاسكندرية فى . .

عزيزى اندريه

لو خطر لك أن تسألنى عن عملى طول هذا الزمن (من حيث الأدب والفن) لأجبتك على الفور هذا الجواب : هو العمل المتواصل على محو كل ما علق بى من الأدب والفن . وقد نجحت . فلم يبق واحد من القلائل الذين كانوا يعرفون ميولى الأدبية يذكر هذه الميول . لقد نسوا الآن ذلك ، وأصبحوا يعرفون عنى كل شىء الا الصلة بالأدب والفن . على أن هنالك شيئا واحدا لم أقو على محوه . انى يا اندريه ما زلت أردد كل يوم فى أعماق نفسى كلما خلوت إليها

السانفونيات رقم « ٥ » و « ٦ » و « ٤ » و « ٩ » بكل تفاصيلها . إنى أصبحت آلف بيتهوفن إلى درجة يخيل إلى معها أنى فهمت سر كتابته وتأليفه مع جهلى المطبق بالموسيقى . إن اذنى لا تستطيع الآن أن تخدع فى أسلوب بيتهوفن بين مئات الأساليب لمئات الموسيقيين . ان قدرة بيتهوفن فى البناء الصوتى تكاد تفتح أمام ذهنى اسرار كل بناء فى آخر . بل اسرار البناء فى الطبيعة نفسها . . . ؟

الاسكندرية فى . .

عزيزى اندريه

قلت لك انى استطعت الاستغناء عن كل شىء إلا الموسيقى . هـذا صحيح . وإنى بعد أن ختمت رسالتى السابقة إليك طفقت أفكر وأتساءل : لماذا الموسيقى دون التصوير مثلا ؟ إنى أحب التصوير كما تعلم . الواقع ان الآثار الموسيقيـة القيمة فى متناول يدى بمختلف الوسائل . أقربهـا وأيسرها الجراموفون . ولـكن كيف وأين أتأمل هنا فى مصر لوحات « جيوتو » و « انجليـكو » و « مملنج » و « رمبرانت » ؟ ان لدى بالطبع أغلب آثار عظماء

المصورين منقولة ومطبوعة طبعاً متقنـا . وإنى لأتأملها من حين إلى حين . ولـكن ليس الحال فى الصور كالحال فى الموسيقى . ان الموسيقى المنقولة فى اسطوانات تعطيك على قدر الامكان فـكرة شاملة عن الأثر الفنى كله . ولـكن الصورة المنقولة تحرمك أهم ركن من أركان العمل الفنى : وهو التلوين . ماذا يبقى لى مثـلا من لوحة « باخوس » لدافنشى إذا جردتها من لونها العجيب . انها صورة فتى لا أكثر ولا أقل . فتى يمثل إله الخمر . ولـكن اللون والتلوين كأنه السحر قلب الصورة فاذا هى عنقود من العنب . من عنب فلورنسا الأحمر الداكن . مانظرت مرة إلى هذه الصورة الا صحت فى نفسى : يا لمعجزة الفنان الذى استطاع بريشته أن يجعل الآمى عنقوداً ! ولـكنه التلوين . ان الرسم ليهبط أحيانا إلى المحل الثانى فى بعض آثار المصورين . فـكيف تريد منى

أن أعيش مع صور فنية بغير ألوان ؟ .. وبغير ألوانها الأصلية التى كد الفنان فى تأليفها . لقد قيل ان « ليوناردو » كان يصنع أو يطبخ ألوانه بنفسه فى معمله المغلق . لقد كان أكثر مصورى عصر النهضة يفعلون ذلك فيما يظهر . وكان تركيب ألوانهم سراً يحفظونه كأنه تركيب اكسير الحياة ؟ وفيم العجب؟ ان اسرار اللون فى الصورة الفنية هو سر خلودها. انه أكسير حياتها ...؟

الاسكندرية ف ...

عزيزى اندريه

أترانى أغالط نفسى ؟ أخشى أن يكون حبى للموسيقى الأوروبية مصدره أنها قبل كل شيء بناء ذهنى . ذلك ان موسيقانا الشرقية وهى قائمة على الطرب والتأثير المادى لا تسترعى منى اليوم أى التفات . الواقع ان الموسيقى الأوروبية بناء فنى ذهنى . شأنها فى ذلك شأن القصة التمثيلية ... والهندسة المعمارية . بل شأن المذهب الفلسفى والتفكير الرياضى . انى ما زلت أذكر قولك لى يوما ان « عقليتى رياضية ».

ربما كان هـذا صحيحا ! .. لقـد كذبت عليك وعلى نفسى إذ أخبرتك انى أحل الألوان المحل الأول فى آثار المصورين . الواقع ان الذى يثـير اهتمامى فى الصورة قبل كل شىء هو ما يسمونه la composition بنيانها وتركيبها .... وما يسمونه le rythme رويها وتنغيمها . فمثلا لوحة كلوحة «المسيح يحمل صليبه» لرفاييل أذكر منها كل تفـاصيل تركيبها المحكم بمواضع أشخاصها وحركات أجسامهم وايمـاآت رؤوسهم واشارات أيديهم وطيات ثيابهم ... كل هذه الأشيـاء أبصرها وقد اتسقت خطوطها واتزنت وكونت فى عالم الضوء والرؤية تركيبا جميـلا منغما كأنه قصيد لا ينبو فيه لفظ عن الروى .. أما الألوان فلا أذكرها كثيرا لأن عينى لم تمتلىء بهـا . امتلاء العين بالألوان فى الطبيعة والحياة والفن شرط لازم

في التصوير . ان العقل في فن التصوير ليس في الرأس بقدر ماهو في العين...العين النهمة التي تبصر وكأنها تغترف وتلتهم ... تلك عين المصور المبدع التصوير فن حسي أكثر مما هو فن ذهني . الآن أدركت السر الذي طالما حيرني أمام لوحات « روبانس » . لطالما تساءلت : ما هذه النساء الممتلئات لحما وشحما ، ذوات الأرداف المترجرجة والخدود المتوردة ، ممن نبضت بهن ريشة ذلك الفنان . ولطالما تساءلت عن الغرض الذي دفع مثلا « بول سيزان » إلى تصوير طبق من التفاح ... ولطالما عجبت لمغامرات « بنفنوتو تشيلليني » المسطورة في مذكراته المشهورة ومافيها من نهم حسي وحشي لمتع الحياة .. الحقيقة ان الفنان المصور يجب أن تكون حواسه المادية وعلى الأخص حاسة البصر متيقظة لألوان الطبيعة إلى حد النهم الوحشي . الفنان النابض بالحياة اما أن يكون متيقظ

الحاسة إلى حد الوحشية أو متيقظ الروح إلى حد الصوفية . فى المصورين كذلك طائفة من المتصوفة. لعل خير مثل لهم هم السابقون لعصر النهضة قبيل القرن الرابع عشر les primitifs . . . على أن اليقظة الروحية أو الحسية فى الفن ليست فى رأيى وقفا على عصر من العصور . فهى ترجع أحيانا إلى طبيعة الفنان وحده وحالات نفسه المتغيرة أحيانا . فريشة « روبانس » التى صورت « امفتريت » زوجة إله البحر «نبتون» كأنها امرأة تزن ثمانين كيلوجراماً .. بضة .. غضة .. كتمثال من الزبد ... لا ينبعث منها أى معنى غير معنى المادة الحية والشهوة الحسية ... هذه الريشة نفسها هى التى صورت « انزال المسيح عن الصليب » على نحو رائع ... كله جمال روحى يبعث فى نفس المشاهد خشوعا ورحمة وشعورا دينيا

عميقا . ان الفنان هو الكائن العجيب الذى يجب أن يلخص الطبيعة كلها بمادتها وروحها فى ذاته الضئيلة المحدودة . هو ذلك الكائن الذى يعيش فى داخله الحيوان والاله جنبا إلى جنب ... ؟

الاسكندرية فى . . . :

عزيزى اندريه

لماذا لا تصرح بالحقيقة وتقول لى فى غير مداراة : رح انت لا تحب الأدب ! ؟ يمنعك من ذلك شىء واحد : انك منذ عرفتنى لم ترنى اعنى فى حياتى بشىء آخر غير المطالعة والتأمل . ومع ذلك فها انذا اليوم لا أحب أن أطالع ولا أن أتأمل . . .

آه يا اندريه . لماذا لم أتعلم فى صغرى الموسيقى. إنى خلقت لأعيش كل حياتى فى عالم الأصوات وحده . اندريه ... يقوم فى نفسى الآن شك كبير يوخزنى . شك فى علاقتى بالأدب والفكر . أعترف

لك يا اندريه كأنه اعتراف أمام قسيس ، انى لا أقرأ
اليوم خلا رسائلك شيئا . فقدت لذة القراءة . لعلى
أبالغ فى الجملة . لكنها الحقيقة فى قسط كبير . كاشفنى
بحقيقة أمرى ولا تحاول مجاملتى أو مداراتى وقد
كشفت لك عن شكوكى . إنى أصغى إلى الموسيقى
لا للفائدة ولا للاطلاع ولا حتى للحاجة الفكرية أو
السمو الروحى . انما للحياة نفسها . إنى أعيش بين
أنغامها كما تعيش النحلة بين ألوان الأزهار . إن
الجمال الذى ينبعث من تناسقها الفنى تدركه فى نفسى
أداة أدق من الفكر الواعى . لماذا لا أقرأ كذلك .
ان القراءة عندى جهدومشقة ووعى ويقظة . ولاشىء
غير ذلك . إنى أوجه إليك هذا السؤال ولن أنفك
أسألك الجواب : هل حقيقة بينك وبين ضميرك
تعتقد أنى سأنتج شيئا فى شئون الفكر
والأدب؟ ...؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

ماذا تريد منى ؟ نعم إنى أطلب إليك وأريد منك لأنك تستطيع أن تعطينى . يدهشنى فى كل رسائلك شىء واحد : انك تريد أن أكتب إليك. ولعله كرم خلق منك . أما أنا فلست أكتم عنك. لو أنى فى مكانك وأنت فى مكانى لما ترددت فى قطع الصلة بهذا الرفيق الناضب المفلس . ما الذى تستبقينى من أجله ؟ هذا دائما ما لست أعرفه . تذكرنى هذه المناسبة بفكرة خطرت لى منذ زمن هى أن أكرس لك خطابا طويلا أحدثك فيه عن الصداقة . فلقد

حالتى أن أصحو فى فترة من هذا السبات الذهنى فلا أجد حولى ها هنا صديقا ولا رفيقا . ولعل الذنب ذنبي . فقد لحظت من حالتى العصبية ومن ضيق صدرى تعذر جلوسى الى الرفاق . كما أنى لحظت هدوء نفسى وانتظام تنفسى واتساع صدري كلما عدت الى حظيرة الوحدة المطلقة . فى أحضان الوحدة وحدها أتنفس الصعداء فى لذة وراحة . أهو مرض؟ أهو توحش ؟ أهو حال عارض طارىء ؟ لست أدرى حتى الآن . ان مجرد الاختلاط العادى والاجتماع فى ذاته حتى مع من يروقنى مجلسه أمر يشق على نفسى ويعد فى نظرى من الأهوال . تستطيع أن تقول انى اليوم فى فترة من حياتى وقفت فيها حركة القلب والعقل معنويا . إنى أحس نفسى الآن تهبط إلى مجرد الآلة . إنى غير جدير بأى عمل يحتاج فيه إلى العقل أو إلى القلب . الحب ! يخيل إلى أنه التفاحة

التى لم أذق حلوها قط ولا أود قط أن أعصى الله من أجلها . وماذا تريد من شخص لا يعرف حتى الصداقة ! العقل والتفكير ؛ آه .. ذهب ذلك الفتى الذى كان يقرأ الكتاب ساعة ويسبح فى التأمل والاستنباط ساعات . وماذا تريد من شخص لا يقوى على فتح جريدة ! كل ما فى الانسان من آلة وآلى هو أنا الآن . أنا اليوم شىء أقل بكثير من إنسان . ومع ذلك يا عزيزى أندريه تشاء بى سخرية الله أو الشيطان أن أسمع وصفا عجيبا لى جرى به لسان رجل عجيب.

كان ذلك فى إحدى الزيارات العائلية ساقونى إليها مرغما . فجلست لحظة ثم هممت بالانصراف . وإذا رجل يدخل فيجلس . وإذا الحاضرون يقبلون عليه طالبين إليه أن يقرأ أكفهم . وقيل لى انه رجل من ذوى اليسار ومن معارف أصحاب الدار . ولكنه ولع بعلم الكف منذ صغره وأنفق عمره فى الاحاطة

به والتعمق فيه حتى حذقه ، فلم يخطىء مرة فى تنجيمه . وفرغ الرجل من النظر فى أكف الحاضرين ودعانى أحدهم أن أمد كفى إليه ففعلت . فنظر الرجل فيها ساعة ثم رفع عينيه إلى وجهى . ولعله ما رأى فيه غير ابتسامة المتشكك فى علم رجل غير ذى منظر ولا هيئة ينمان عن ذكاء . لقد كان رجلا بدينا أصلع ضعيف البصر ، ترتسم على وجهه السذاجة إن لم أقل الغباء . لقد مثل فى رأيى صورة للعمدة الفلاح الجاهل البسيط . ولكنه عندما تكلم قارئا كفى فاه بألفاظ أدهشتنى . ألفاظ لا تجرى إلا على ألسنة أهل العلم وللفطنة والثقافة . وإليك نص ما قال : « انت روحانى طبيعتك روحانية . (وهنا طلبت اليه تفسير هذه الكلمات فقد عجبت لنطق مثله بمثلها ثم نعتى بعذلولها وهو لا يعرف من أمرى شيئا . ولم أتكلم طول الوقت الا بالتافه من كلمات

المجاملة . وكنت دائما أصغى الى الآخرين . ولعلى كنت أصغر الحاضرين شأنا وأقربهم إلى هيئة الحمق والبله) فأجاب : « لا تسألنى تفسيرا . لا تسألنى فى غير ما أرى : أمامك الشمس ... الشمس لا ترى فى كل كف ولا فى كل طالع ... الشمس أراها فى نجم حضرتك ! » .. ولكن حضرتى ما كان يعنيه بالضرورة غير مسألة « أكل عيشه » وكسب قوته . فأسرعت قائـــلا : « وماذا غير ذلك ؟ » فمضى يقول : « ثم انك من حيث الثروة والسعادة قنوع . سعادتك فى القناعة . والغنى عندك قناعة . يعنى لن يكون غناك فى المال .» ثم قال : « وانت تحب العزلة . انت مثل رجل منقطع . . . » هنا شعرت برجفة . تلك يا أندريه هى الحقيقة الوحيدة التى اعتقدت أن الرجل قدفاه بها . ولا تستطيع أن تتصور مقدار دهشتى عندما قال ذلك خصوصا فى وقت كنت

اكثر فيــه من تأمل حالتي المزعجة . ونظر الرجل أيضا ثم قال شيئا غمني وغم أهـلي على الخصوص . فقد قال أفاده الله : « فقط . . فقط . . . لست أرى طريقك في مناصب رسميـة . » فـلم أرد فهم مراده . بادىء الأمر . وخالجني قلق وكـدر فأنا لم أزل مستبشرا بوظيفتي القضائية التي كادت تتم اجراآت تعييني فيهـا . . . فقلت له : « ومامعنى طالعي اذن اذا كنت لا ترى لي طريقا في وظائف ال . . . . » فقاطعني بعنف : « أنا أرى فقط ولا أفسر » . . لقــد أوردت لك يا أندريه » نص ألفـاظ الرجـل على وجه التقريب . فما رأيك ؟ إذا أردت رأيي أنا فاعـلم انى ضحكت في نفسي كثيرا لقوله إني « روحاني » ! من العجيب أن يجيء قوله هذا في وقت أوقن فيه بأني «مادي» المادية كلها بل « آلي » الآلية كلها . لقد كدت أصبح في

الرجل قائلا : أيها المنجم ، انى أوثر أن أمسخ قردا على أن تصدق فى « روحانيتك » هذه . ما أضاعنى إلا هذه الروحانية . أما « الشمس » أيها المنجم فانى أبيعها لمن يشتريها من الحاضرين بمبلغ مائة وعشرين قرشا ثمن تذاكر دخول كازينو سان‌ستفانو لحضور « كونسيرات » الخواجه بونوى ! « القناعة » ! سأعيش بالقناعة طول حياتى ؟ يا للبؤس ! لماذا ؟ لأن القناعة تاج دائم ؟ ! لا يا سيدى المنجم . انى مستعد أيضا لعرض هذا التاج للبيع بالمزاد . سأبيعه بالبخس كما بيعت تيجان آل رومانوف والخليفة العثمانى . نحن نعيش الآن عصرا تحول فيه التيجان الى ورق من البنكنوت ! إن هذا العالم بالكف الذى لم يخطىء مرة : قد أخطأ هذه المرة ، حتى يحق له ان يقول انه أخطأ مرة . فالاستثناء يسبغ أحيانا على الأخبار رداء الصدق والحقيقة .

آه يا اندريه ! انى فى حاجة الى ان يدق القلب دقتين أو ثلاث ، ثم يقف . . . لدينا ساعة كبيرة فى ردهة الطابق الأسفل . جئت من أوروبا فوجدتها . وقيل لى إنها مشتراة فى مزاد عام ، منذ ثلاثة أعوام . ساعة سليمة دقيقة تسير على خير ما تكون الدقة والضبط ... ولم تعرف قط يوما الوقوف ولا التأخير وإذا بها ذات يوم قد وقفت فجأة . فدهش لذلك أهل البيت . وها جوا وما جوا . وجعل كل يقترح أمرا لأصلاحها . فحاولت أنا اصلاحها فلم تصلح . وسمع والدى بأمرها فنزل من حجرته اليها يعالجها باللين فلم تصلح . فطلب مطرقة وجعل يدق بعض ما فى هيكلها من مسامير ويفك بعض ما فى جوفها من تروس . فلم يظفر بطائل . فتركها آخر الأمر وتركناها يائسين . وإذا بها ذات ليلة تدق فى جوف الليل من تلقاء نفسها والكل نيام ، دقتين أو

ثلاث .. فى ذلك السكون التام .. ومنذ تلك اللحظة سارت . ولا يدرى غير الله ما أوقفها وما سيرها !

ترى بعد موت طويل يستطيع القلب ان يدق دقتين أو ثلاث ، يعقبها البعث والحياة ؟!.. ✿

عزيزى اندريه

مات « بونوى » ! مات « إدجار بونوى » !

الأحد الماضى فقط . منذ ثلاثة أيام رأيته فى كازينو سان استفانو يقود « أندانت » السانفونيــة الثانية و «أليجرو» السانفونية الأولى «لجوستاف ماهلر» وال Antiche danza «لرسبيجى» . وكونسرتو البيانو والأوركستر « لأدوار جريج » . . فقط أمس الأول سمعت صوته فى طرقات الكازينو يعــــد « بروفات » الأحد القادم !

وفقط أمس ظهرت على جدران رمل الاسكندرية

لأعلانات المعتادة لأسماء القطع التى ستعزف فى الحفلة المقبلة . وعلى رأسها « La Rédemption » لسيزار فرانك . إدارة الكازينو جاهلة ما يخبئه عزرائيل للمايسترو المسكين ! فهى ما زالت كعادتها جادة فى اصدار الأعلانات وتوزيعها متوجة بالعبارة المألوفة : « الكونسير سانفونيك : رقم ١٤ تحت قيادة المايسترو ادجار بونومى » .

إلى رحمة الله يا بونومى !

حتى انت ! الوحيد الذى لنا فى مصر !

إن موت هذا الرجل نكبة عندى . ومهما يكن من أمره وأمر فنه . فقد كان لى فيه العزاء والسلوى فى هذا البلد الفقير الى الفن . قل ان الله يريد حرمانى كل مصدر سعادة روحية : حتى انقلب فى النهاية بهيما يرعى أرض مصر الخصيبة !

لا بأس . فلنرجع الى الجراموفون الآن لى .

ولكن . . . رحمة الله عليك يا بونومى بمقدار ما أسعدتنى فى لحظات . . .

اندريه : هذا ثالث خطاب اليك من سلسلة خطابات مكتوبة ولا شك تحت تاثير حالة شبه واحدة . وأخشى أن تفسر هذه الحالة بما اعتدت أن تفسرها به . قائلا : « أوه ، انى أفهم حالته جيداً من خلال سطوره ! » . الواقع انك قدير على استشفاف ما بين سطورى . غير انى لا أريد أن تفهم أكثر من انى الآن فى حالة كآبة عارضة وهل لا تعطينى حتى حق الوقوع فى الكآبة من حين إلى حين ؟ لكن ثق انها حالة نفسية داخلية لا أثر لها فى تصرفاتى الخارجية ولا صدى لها فى أعمالى الظاهرة ولا تظهر حتى لأعين غيرك من الناس . ومع ذلك فانى قد محوتها أو سأمحوها من

أمام عينيك أنت أيضا . لانى أعلم أنك لا تحبنى مكتئبا . نعم . يجب على أن أخاطبك ضاحكا دائما . والا حق لك أن تصيح بى : «اضحك أيها البلياتشو!» كما حق للجمهور أن يصيح ببلياتشو (ليون كافاللو) فى (الاوبرا) المشهورة !

نعم . لماذا أطلعك على الأركان السوداء من حياتى ؟ أنت الذى لا يأخذ حياتى على سبيل الجد . فلألبسن لك « الطرطور » ولأدهنن لك الوجه بالدقيق . ولتدق الطبول . ولينفخ فى البوق وليرفع الستار عن الفصل المضحك :

إسمع يا سيدى . أيام أن كان صديقك الشرقى يتناول الغداء فى المطعم الألزاسى ، لقد زعم ان « الساقية » الرشيقة خادم المحل كانت تخالسه النظر . الواقع انها منذ وقع بصرها عليه أول مرة وهى لاتفتأ ترمقه كلما مرت به حاملة طبق الكرنب المعمر بسجق

« فرانكفور » أو « نصف بيرة » أو « واحد » جبن « كامبير » . لقد عجبت حقاً لأمر هذه الجميلة التى سخت على بكل هذا العطف ، إذ خصتنى بالتفاتها دون اولئك العديدين الذين لا يأتون إلى هذا المكان إلا من أجلها . أجل يا سيد اندريه . لم تكن أنت وحدك الذى كان يصنع ذلك . لقد كانت هنالك عصبة شبان يظهر انهم من التزويج . كانوا يختلفون إلى ذلك المطعم لرؤية « القمر » فى نصف النهار ! أما عن فرح « توفيق الحكيم » بهذا العطف الخاص فحدث ولا حرج . لقد شمخ وانتفخ وقال لنفسه : « لعل ميزة خفية أو ظاهرة فىّ هى التى استلفتت نظر الفتاة ! » . وأراد يوما أن يبتسم لها . ولكنه نظر قبل ذلك إلى وجهه فى المرآة . وإذا هو فجأة يدرك سر نظرات الجميلة اليه . يا لخيبة الأمل ! وتذكر فى تلك اللحظة ان نظراتها كانت موجهة فى حقيقة

الأمر إلى رأسه .. إلى شعره . إلى ذلك الشعر المنفوش « أرتستيك » ومن تحته ذلك الوجه الغريب بعينيه اللتين تشبهان أعين أهل الأساطير الدينية المصورة فى الفسيفساء البيزنطية ، وشفتيه الغليظتين الافريقيتين كأنهما شفتا ساحر زنجى ... عند ذلك تذكر أيضا ما قالته فيه خادم الأسرة التى نزل عندها محجى (فوجيرار) أول عهده بباريس . لقد دخلت عليه الخادم فى الصباح تحمل صينية الفطور . فوقع بصرها عليه فى السرير ، لا يبدو منه إلا رأس يطل من اللحاف الناصع كأنه رأس يوحنا المعمدان على صينية الفضة . ولكن حاشا لله ان يكون هذا معمدانا ! صاحب مثل هذا الرأس لا يمكن ان يكون من الآدميين ! ذلك ولا ريب ما جال بخاطر الخادم وهى تنظر إلى شعرى الذى هب قائما إلى ما فوق مسند السرير فى شكل دائرة . كأنه هالة من (الهباب)

الأسود على حافة الوسادة البيضاء . اما الوجه فوق الوسادة وتحت الهالة فلم تره لحسن الحظ . ومضت الأيام . وإذا صاحبة البيت تقول لى ذات يوم باسمة وقد زالت بيننا الكلفة : « اتدرى ما حدث فى صباحك الأول لدينا ؟ لقد جاءتنى الخادم تقول مرتاعة : « اتدرين يا سيدتى من حل بدارنا ؟ . فسألتها : من ؟ فأجابت : C'est Le Diable إنه الشيطان !.. »

ولعلها صدقت . ولست ادرى ما ذكرنى الساعة بهذه الحادثة التى كدت انساها . ولم يذكرنى بها حتى خطابك الممتع الذى حدثتنى فيه عن ذلك القسيس. الذى ظن « توفيق الحكيم بملابسه السوداء » الشيطان او المسيح الدجال . إذن ما جاء بخطابك لم يكن محض خرافة ولا تأليف ! من يدرى . لعلى

اخذت عن إبليس صورته وهيئته . لكن ... هل
تظن ان لى ايضا قلبه ؟ لا اظن . وبعد . . .
فلتسكت الطبول ، وليغسل (البلياتشو) وجهه ،
فقد انتهى الفصل المضحك ! .. ؟

الاسكندرية لى . . .

عزيزى اندريه

هل حقا انت تفهمنى ؟ وهل تقدر ما انا فيه ؟ انها دائما حالة القلق والبحث والتنقيب عن الأسلوب. لكن انتظر . ماذا اريد ان اقول ؟ هل لى الحق ان اتكلم فى الأدب ؟ مع ذلك انقطع شكا وقلقا وبحثا يا صديقى اندريه ، لا عن اسلوب الأدب وحده . بل عن اسلوب حياتى ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

ولنعد إلى ما جاء فى رسالتيك الأخيرتين عن غرقك فى بحر الكتب والمطالعات وخروجك مصابا بحمى الشك والقلق . ينبغى ان ابادر فأقول لك ان هذا القلق مرض دورى لكل رجل فكر . اين كنت انت ايام اصابتى بهذا المرض الاصابة الأولى؟ لقد حدث لى بالضبط كل ماوصفت . فى ذلك الوقت كنت انت فى مصنعك بعيدا عن المنطقة الجدية العميقة من نفسى . وكنت انا فى حجرتى قريبا من مسكن المأسوف عليه ايفان . لقد كان العامان

الأخيران من عهد باريس رازحين تحت اثقال هذا المرض الموهن . لقد فتحت امامى المطالعات دنياوات لا قبل لى بها وعوالم لا حدود لها وقد حدث ذلك فجأة او على الأقل فى سرعة لم يتحملها ذهنى . فصار مثلى مثل ذبابة اطلقت فى اجواز الفضاء الهائل وهى التى ما هامت إلا فى جو الحجرة الضيقة وما عرفت النور الا من خلال النافذة الزجاجية المغلقة . على ان هنالك فرقا بينى وبينك لا يجوز ان تنساه . فرق جعل مرضى اثقل وطأة واشد فتكا . ذلك انى كنت اعتبر شئون الأدب والفكر حرفة وغاية . وكنت ادع المتصلين بى يفهمون عنى ذلك . وكنت اعلن لا فقط حبي لشؤون الفكر والأدب والفن بل اشتغالى الكلى بها . اما انت فقد كنت تعمل عملا حقيقيا ترتزق منه وتأخذه على سبيل الجد وما كانت المطالعات عندك الا هواية . وما كان .

الاغراق فى التأمل والتفكير والخيال الا موضوع سخريتك ، على الأقل فى أول عهدك . إلى أن رضيت آخر الأمر أن تتفضل على هذه الأمور بنظرة تسامح . ذلك حالك وهو كما ترى ليس خطيرا الى حد كبير . أما أنا فقد تفاقم خطبي . لقد أضعت وقتى كله فى باريس منحنيا على مكتب الحجرة رقم ٤٨ بشارع بلبور . اقرأ وأقرأ حتى قرأت كل شيء . لم أترك شيئا فى تاريخ النشاط الذهنى لم أطلع عليه . لقد غرقت فى آداب الأمم كلها وفلسفاتها وفنونها . لم أكن أسمح لنفسى بأن أجهل فرعا من فروع المعرفة لأنى كنت أعتقد أن الأديب فى عصرنا الحاضر يجب أن يكون « موسوعيا » . لذلك بذلت جهدى فى أن أحيط بأبرز ما أنتجت العبقرية الانسانية . حتى العلوم ، أردت أن ألم إلماما بأهم نتائجها . ففى الهندسة حاولت فهم هندسة نيومان

المعارضة لهندسة اقليدوس التقليدية . والرياضة أردت فهم مراميها العليا فى مؤلفات الرياضى هنرى بوانكاريه . والطبيعة والفلك بدأتهما باسحق نيوتن حتى بلغت نظرية اينشتين التى قرأت فيها وحدها نحو خمسة كتب . وفى علم الحياة قرأت بعض كتب داروين ولامارك ... وفى علوم النفس بدأت بكتب جورج توماس وارمان ريبو وانتهيت إلى أكثر ما كتب عن نظريات فرويد . ولفتت نظرى العلوم التيوزوفية فقرأت كتب « آن بيزانت وادوار شوريه ورودولف شتينر » وخرجت منها إلى العلوم الروحية فقرأت ابحاث اوليفرلودج ووليام باريت وفلاماريون . حتى علوم الكهرباء حاولت فهم ما أستطيع فهمه من نظريات فاراداى وتومسون وبيران ... الخ ... أما قراءتى فى القصص التمثيلى فهى أعجب شىء فعلته . لقد قرأت كما أخبرتك ذات

مرة « المكتبة المسرحية » La Librairie Théâtrale
برمتها . فأنا كنت أراسلها من مصر قبل زوجى
إلى فرنسا . واعرف عنوانها فى الجران بولفار .
وكانت هى أول حانوت دخلته إذ دخلت باريس .
فجعلت أختلف إليها أياما طويلة أطالع صفوف كتبها
صفا صفا .. وانطلق آخر النهار بما استطيع شراءه
مداراة لصاحب الحانوت . واعتاد الكتبي رؤيتى
كل يوم على هذه الحال . . . إلى ان نظر ذات يوم
حوله فلم يجدنى . فسأل فى ذلك أحد عماله مستغربا..
ثم حانت منه التفاتة إلى أعلى المحل فأبصرنى فى قمة
السلم لاصقا بالسقف التهم الكتب التى فى الصف
العلوى الأخير ... اجل ياأندريه فعلت هذا وبعد ذلك
كله انكببت أكتب وأكتب مخطوطات . . .
كان مصيرها كلها التمزيق ، ان ما جعلتك تقرؤه
منها يا اندريه لا يوازى جزءا من عشرة أجزاء مما

أخفيته عنك وانتهيت إلى تمزيقه قبل ان تطلع عليه عين . ولعل ما قرأته انت هو انكب وأقبح ما سودت به وجه ورق . انها سهول من الصحارى والرمال تصور لنا سرابا بعيدا لن نبلغه أبدا . سهول من الأساليب المختلفة كلها « السهل الممتنع » . يحسب القارىء انه محيط بأسرارها واضع اليد على مفاتيحها مستطيع أن يبلغ مبلغها لو أمعن فى السير والبحث والكتابة . فيسير ويسير متوهما فى كل خطوة انه يبصر « اسلوبه الخاص » المنشود يلمع فوق تلك السهول . لكنه ما يبصر غير سراب . ولشد ما توهمنا ان الاسلوب الخاص معناه التجديد وان التجديد معناه الاغراب . وبهذا الوهم كتبت حماقات كنت أحسبها شعرا . ونزعت إلى الاغراب خشية التقليد فاذا بى أقع دون ان اشعر فى محاكاة « الدادايزم » و « السورريالزم » و « الكوبزم »

الأدبى . وإذا ما كنت أظنه استيحاء مبتكرا فى وضع الشعر على طريقة « بيكاسو » و « ماتيس » فى التصوير الحديث ، ليس إلا صدى باهتا لطريقة « جان كوكتو » ونزمات « مارسيل شووب » واتجاهات « ماكس جاكوب » . وضعت فى هذا الأسلوب قطعا كثيرة أهمها : (النفس) و (القبلة) و (أبو الهول) الخ .. مزقتها طبعا قبل أن أفكر فى اطلاعك عليها . . . وغير ذلك كم من الفصول التمثيلية كتبت ومزقت ! لقد كنت أظل أكتب أحيانا تسع أو عشر ساعات فى اليوم بلا انقطاع دون ان أذكر الجوع او أفطن إلى أوقات الطعام . ولقد انفقت شهورا فى وضع قصة تمثيلية قرأتها لصديق مسيو هاب وقد كان قبل الحرب ممثلا مهما كما تعلم فى أشهر مسارح باريس .. ! قرأناها معا فى يوم بأكمله بحديقة اللوكسمبورج ، وكان مصيرها

« الالقـاء » فى أول مرحاض عام بشارع مدسيس . ذلك انى لم استطع صبرا على الانتظار حتى أعود إلى مسكنى فألقيها فى سـلة المطبخ . ولـكنى لم أقنط مع كل ذلك . لقـد استمرت الحمى بعدئذ سنتين كاملتين . قاسيت فيهما كثيرا . لقـد كان القلق مستحوذا على إلى درجة مروعة . لأنى كنت أظن فى الأدب مستقبلى لقـد كنت أضن على نفسى المتعبة بشىء من الراحـة والاستجمام . لكم دعانى زملائى المفلحون من دكاترة الحقوق إلى السفر معهم فى الصيف إلى شاطىء « أوستند » أو إلى جبـال (الفوج) او الى قرية على بحـــيرات سويسرا استـكشفوها . وكانوا يذهبون لنزهـة الصيف زرافات يضحكون ويلهون وكلهم فرح بالحياة مدرك لقيمة الشباب . اما انا ففى باريس دائمـا . قد انحنى ظهرى على مكتبى بشارع بلبور ، أبحث وأبحث عن

ذلك السراب الذى يدعى «الأسلوب» . حتى الحب. حتى (فينوس) ضحيتها من أجل (أبولون) . لقد كنت أصالح (ايما) يوما لأخاصمها شهرا . ولقد كانت تشاء الظروف ان أقابلها فى المصعد وجهالوجه وتسنح فرصة الصفاء واللقاء . ولكنى أقول فى نفسى : علام الصلح وانا لم أزل مع الفن فى خصام ! وأعود إلى أوراقى انكب عليها انكبابا غير حافل بغضب (إلهة الحب) معفرا جبينى عند أقدام (إله الشعر والفن) . وإذا بهذا الاله القاسى يهزأ فى النهاية بتعبي وكدى ويبسم لى قائلا بلسان مسيو هاب : (نعم . نعم .. لديك موهبة الحوار .. لكن ...) فيلقى بهذه الكلمة الصغيرة جرثومة الشك فى أعماق نفسى . فانهال على عملى تمزيقا لأبدأ عملا آخر فى كد ونشاط قاتلين . ويأتى الشتاء دون ان اشعر ويسافر اصدقائى الى التمتع بالشمس فى (نيس) و

(جراس) . وأنا أنا على عهدى أرفض الذهاب معهم لألقى بنفسى من جديد فى أتون تلك الحمى المستمرة . ولا اكاد افيق الا على صوت غناء (ايما) يصعد الى من نافذتها بالطابق السفلي . ولكن ... أين لى راحة الضمير ؛ أين لى ذلك الاطمئنان الى آخرة طريقى الوعر المغلف بالضباب ؛ أين لى ثقتى بنفسى وعملى أين لى الأمل ببعض النجاح . أين لى القليل من الرجاء يلطف من ذلك القلق الذى يحرمنى التمتع بالحياة والشباب وباريس . ما كان شىء يؤلمنى ويطعن قلبى مثل سماع تلك الأغنية الباريسية الشعبية التى مطلعها :

Si vous voulez l'amour n'attendez pas huit jours

(إذا كنت تريد الغرام فلا تنتظر ثمانيــة أيام !)

وأنا لا أنتظر ثمانية أيام فقط . انما أنتظر الأبد . أنتظر السراب الذى لن يأتى . أنتظر الوصول الى مفتــاح حيــاتى وسر غدى . بل انتظر على الأقل

علامة واحدة تدلنى على أن ما أنفق من وقت وجهد وألم فى البحث لم يضع عبثا . . .

لقد كان مسيو هاب يعيب على شيئا واحدا : كتابتى بالفرنسية مباشرة . ولكن ذلك لم يفت فى عضدى ووضعنى هذا القول وأمثاله فى جحيم المعركة من جديد . . . فاندفعت أعمل سنة كاملة أخرى كتبت فى نهايتهـا صفحات تقرب من الخمسمائة لم أطلعك عليها . ولكن بعض الأصدقاء حملوها إلى ناقد فرنسى معروف ، لم يرنى ولم يعرفنى . يستطيع ان يصدقنى الرأى . فأبدى رأيه فى خطاب طويل ، فيه تحليـــل دقيق ، ختمه بالعبـارة المعهودة : أفـكار كثيرة وموهبة فى الحوار ، . لكن . . .

beaucoup d'idées le don du dialogue, mais ...

آه لهذه اا (mais) ! .. آه لهذه اا (لكن) ! قتلتنى هـذه اا mais ! لطالما مزقت وقتى وجهدى . . .

وقلبي ! ... وشعرت انى سجين هذه الـ mais أفظع مما سجن بها ملك روما فى قصة «ادمون روستان»!.. ومزقت تلك الصفحات أيضاً . ان اعتراضات الجميع لا تتغير : (لماذا تحاول أن تتكلف الأسلوب تكلفاً؟! انه لا يفوح من اسلوبك الفرنسى أى عطر شخصى أخاذ ... انما هى عبارات محفوظة فى كتب البلاغة تحسب انها اسلوب رائع !)... حقاً ... ان احتفالى بأمر الأسلوب قد أوقعنى فى التقليد ... آه لكلمة اسلوب : ولكلمة formule . ! لقد بدأت أبصر وقتئذ . . . لقد تبين لى بعد طول الجرى والجهد ان الأسلوب أحيانا حجة الكاتب الذى لا يجد مايقول. ان الذى عنده ما يقول للناس يخرج بكل بساطة ما لديه من كنوز . . . لا يحفل بأسلوب التقديم ويتكلف الوضع المسرحى فى الاعطاء الا ذلك الذى يعطى شيئاً تافهاً . ما الأسلوب إلا تلك الآلة

الصناعيـة التي نتوسل بهـا للوصول إلى الحقيقة . ولـكن ما أروع الحقيقة لو تفجرت وحدها من أعماق القلب الصادق في كلمات بسيطة .. لهذا كان الأسلوب أحيانا كل أدب اولئك الذين لا يحملون في جعبتهم ما ينفع الناس ... ولقد لحظت انت يا اندريه بحق ان كتابا مثل كتاب (السحر الاسود) لبول موران هو مجرد اسلوب . وان كتابا مثـل كتاب « قافلة بغير ابل » لرولان دورجليس ليس سوى اسلوب . هذا العصر الآلي يلجأ أحيانا إلى آلة الأسلوب كلما اعوزته روح الحقائق الانسانية التي أبرزها الأدب القديم . الأسلوب هو المظهر الخادع الذى يخفي به كتاب اليوم جهلهم المطبق بروح الشعوب التي يزعمون النفوذ إلى صميمها في مدى رحلة شهرين بالقطار والباخرة ! انهم يستعيضون بفن (الديكور) الـكلامى والريبورتاج السريع واللون المحلي السطحي

عن الحقائق التى لا يحسها إلا اهلها . ان مايطلبه الغرب وما يطلبه الشرق أشياء غير ذلك . اقرأ مقالات لويس برتران عن اسبانيا . . انه قد أدرك كل هذا . فهو يتهم كتاب فرنسا المعاصرين بأنهم لاهتمامهم باللون السطحى وحده قضوا على اسبانيا أن تظل مجهولة إلى الأبد لعين فرنسا . وأنا أزيد عليه ان كتاب اسبانيا أيضا من أمثال بلاسكو ايبانيز ساهموا فى هذا التضليل . لقد قيل ان هذا الكاتب الاسبانى المشهور كان ذا وجهين : وجه يتجه إلى وطنه ينشىء له أعمالا هى وحدها ذات القيمة الحقيقية . ووجه يتجه إلى أوروبا فينشىء لها أعمالا دولية . واوروبا للأسف لاتعرف إلا هذا الجانب المصنوع لها صنعا . إذا كان هذا قد قيل عن اسبانيا فماذا يقال عن مصر والشرق؟ إن مهمة كاتب مصرى اوشرقى لأشق وأعسر وأكبر من ذلك كله ! ولكن لا بد من جهادنا

حتى فى بلادنا أيضا . فان الأسلوب السليم لم يزل فى عرفنا مرادف اللغة المتصنعة المنمقة . وقليل من فطن إلى أن الأسلوب هو روح وشخصية . لقد كان مسيو « هاب » يدعونى إلى ترك الكتابة بالفرنسية لا لأنى لا أحسنها . على النقيض . لأنه رآنى أتكلفها وأنمقها وأستخدم تراكيب موضوعة وبلاغة محفوظة مما حبس روحى وسجن شخصيتى فى اغلال من الكذب والتصنع . لقد أصاب الحقيقة . لا يخلق الأسلوب الحق إلا الكاتب الصادق فى شعوره وتفكيره إلى حد ينسيه انه ينشىء أسلوبا البلاغة الحقيقية هى الفكرة النبيلة فى الثوب البسيط . هى التواضع فى الزى والتسامى فى الفكر . كذلك كان أسلوب الأنبياء فى حياتهم : انظر إلى محمد وعيسى على الخصوص : بساطة فى الملبس وتواضع فى المظهر

وسمو فى الشعور والتفكير ...

انى يا اندريه مهتم كل الاهتمام بالتفاتك الحاضر إلى الأدب . وان بحثك وشكك وقلقك لما يدنيك إلى نفسى . فمرحباً بك . امض فيما انت فيه . ولا تخش هذا « المرض الضرورى » . بل يجب أن لا تشفى منه سريعا . حبذا لو اتصلت بك وعما تقرأ أكثر من ذلك . ولو أنى أتبع اليوم « نظاما صحيا » régime sec أى عدم المطالعة فى الأدب اطلاقا . قراءتى الآن قليلة . وفى أشياء أخرى غير الأدب ، مثل تقارير عصبة الأمم ، وسياسة أوروبا الاقتصادية بعد الحرب ... الخ

حاشية — أصبح الأمل ضئيلا فى أمر تعيينى النهائى بالقضاء المختلط . فانى بعد أن ألحقت بنيابة

الاسكندرية تحت التمرين توطئة للتعيين ، ولبثت أعمـل تلك الشهور الطوال ، عينوا فى كل وظيفة تخلو أشخـاصا غيرى وتركونى فى القاع كثمالة الـكأس ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

أحقيقـة ان امرأة تستطيع أن تميل إلىّ ... ؟
آه أيهـا الماكر ... لقد كشفت حيلتك . تريد أن توهمنى ان « الجميلة » ساقية المطعم الالزاسى تحمل لى أجمل الذكرى ! كلا . انك تعاملنى دائمـا كما يعامل طبيب مريضا . وهذه الفكره وحدها كفيلة ان تجعلنى لا أصدق ما تقول . تذكر لى انك دعوتها إلى العشاء . وتخشى غضبى لا يا سيدى . إنى لم أغضب على النقيض . لقـد سرنى ذلك . انهـا كانت عندى شيئا جميلا حقاً . شىء جميل لم أجرؤ

على مسه بأناملى . حتى لاينهار أملي فيه . ليت الأمر اقتصر على الحب يا اندريه . كل شيء ينهار بلمسة من يدى . . . كأنما أبنى الآمال من الرمال . لقد مضى أكثر من عام وأنا فى الاسكندرية . لقد تغيرت كثيرا . وتنازلت عن أغلب أفكارى وآمالى . لقد أرغمتنى الحياة على المصانعة فى أمور كثيرة . لقد نبذت فكرة القضاء المختلط واتجهت شطر القضاء الأهلى .. إنى الآن فى انتظار أى قضاء ؟ ! ان الحياة لتقهرنى قهراً على قبول مالا أريد ... إنى منذ التحاق بالنيابة المختلطة تلك الشهور ، وانا أختلط بطوائف من الموظفين وبألوان من الناس ما كنت أحسبانى أستطيع الحياة بينهم يوما . وحتى مطالعاتى الآن اكثرها - عدا ما يتعلق منها بعملى الرسمى - يجنح إلى الدراسات الجافة والمسائل الاقتصادية . ومع ذلك فانى أشعر دائما أن فى نفسى منطقة رفيعة منيعة

لا يصل إليها أحد . فانى ما أكاد أختم أعمال النهار... حتى آوى إلى حجرتى أصغى إلى اسطوانة « عصفور النار » لسترافنسكى . لقد أخطأت يا اندريه كما أخطأت أنا من قبل إذ نظن حياة العمل والواقع قديرة على انتزاع حب الجمال من أنفسنا : وا أسفاه ! ان كل ما كسبته نفسى من اتصالها بالفن الحق كان حقيقيا خالصا لا زيف فيه .

إنى أعيش فى الظاهر كما يعيش الناس فى هذه البلاد . اما فى الباطن فما زالت لى آلهتى وعقائدى ومثلى العليا . كل آلامى مرجعها هذا التناقض بين حياتى الظاهرة وحياتى الباطنة .

إنى أصر على مراسلتك هذا الاصرار لأنك الوحيد الذى يعمر هذه الحياة الثانية . انها صحراء اصيح فى ارجائها وأنت وحدك الذى يسمع رجع الصدى . آه انك لن تقدر آلام من يعيش فى غير

عصره . فأنت اوروبى يعيش فى اوروبا . إنك لم ترزأ
بعد بالحياة بين ناس لا يتصل إحساسهم الفنى باحساسك
لقد كان مجرد حضورى فى قاعة كونسير « بلييل »
او « كولون » يجعل بينى وبين كل فرد حاضر فرنسى
او روسى او ألمانى صلة تكاد تكون صلة المواطن
بالمواطن . لقد كانت أيدينا تنطلق بالتصفيق لدى
دخول موسيقى مثل « فورتفانجلر » فى شبه حركة
واحدة . كانت مراكز الاحساس فينا جميعا متصلة
بسلك واحد . لقد كنا فى وطن ثقافى واحد . لقد
كانت تظلنا انا والفرنسى والروسى والألمانى والمجرى
والانجليزى سماء واحدة هى سماء الحضارة فى هذا
القرن . من أجل ذلك كنت اطالع كل ما كتب
عن عصبة الأمم وكلى أمل ؛ وما قيل عن « الدولية »
واتجاهاتها الانسانية وكلى رجاء . ثم إنى فوق ذلك
وبعد ذلك كنت أعيش . أعيش الحياتين بمبل حياة

واحدة . إذ لم تكن بى حاجة إلى حياة ظاهرة وحياة باطنة . قد تسألنى أليس فى مصر طبقة من المستنيرين؟ نعم فى مصر بيئة مستنيرة فيها كثيرون عاشوا فى اوروبا وعرفوا الثقافة الأوروبية . وفيهم من يعرف الفن الأوروبى ويتكلم عن المصورين والتصوير ومن يتكلم حتى عن برامس وباخ وهاندل . ولكن النادر أن تجد بين هؤلاء من عرف ان الثقافة الحقيقية شىء والكلام فيها شىء آخر . وقليل من بين هؤلاء من أدرك ان الثقافة العقلية وحدها ليست كل الثقافة . وان الثقافة الكاملة شىء اوسع من ذلك بكثير . ان اكثر هؤلاء المتكلمين فى الموسيقى والتصوير والفنون يعرفونها برؤوسهم ولا يدركونها بحواسهم . ان المطلوب للثقافة ليس مجرد المعرفة بل الاحساس والتذوق والتغذى بمختلف الفنون . ماقيمة الكلام عن بيتهوفن إذا كانت أعماله لا تهز نفسك

هزأ . وما معنى الحديث فى رافاييل او مملنج او روبانس او بوتيتشيللى إذا كانت صورهم لا تعمر رؤوسنا ليل نهار وتحدث الوانهم واصباغهم في نفوسنا الاحداث . الثقافة ليست كلاما نملأ به الرؤوس ولكنها يقظة الملكات كلها والحواس . إذا سلمت بقولى هذا فلا أبالغ إذا قلت لك ان ليس فى مصر عدد أصابع اليدين من المثقفين ... م؟

الاسكندرية لى . . . :

عزيزى اندريه

إنى الآن غارق فى الأدب العربى . أريد ان ادرس قضيته من أساسها . اريد ان أعيد النظر فى أمر اللغة العربية ـ لغتى ـ وا كشف اسرارها وأضع اصبعى على مواطن ضعفها وقوتها . هذا الوقت هو خير وقت أستطيع فيه ان ارى وأميز وأحسن الحكم . فلى عينان قد طافتا — منذ أمد ليس بالبعيد — بمختلف الآداب العالمية . ولقد نجحت فكرتى حقا . انى اقرأ نصوص هـذا الادب فى عصوره المتعاقبة بعين جديدة . عين عامرة بالصور . حافلة بالمقارنات

وبنفس رحيمة عادلة صابرة ؛ تلتمس العلل والاسباب وتطيل التريث والبحث قبل ان تصدر الأحكام .
قبل كل شيء احب ان اقول لك ان اولئك الذين علمونا اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية كانوا يجهلون لا معنى اللغة العربية وحدها بل معنى اللغة على الاطلاق . إنك لن تجد مستنيرا فى مصر لا يقول لك ان اللغة العربية — للأسف — قاصرة عن التعبير فى شتى ضروب العلوم والفلسفة والتفكير العالى . بل منهم من يقول انها ليست لغة تفكير . انما هى لغة بهرج وتنميق . لماذا ؟ السبب بسيط : هو ان النماذج التى وضعت فى ايدينا ونحن صغار للبلاغة فى اللغة العربية كانت كتبا غثة المعنى متكلفة المبنى . لو كتب بها شخص اليوم لأثار سخرية الناس . نعم . . . انهم يعلموننا فى المدرسة لغة إذا استعملناها فى الحياة ضحك منا الناس ! منذا يستطيع

بعد انتهاء دراسته ان يكتب رسالة على نمط « عبد الحميد الكاتب » او مقالا او بحثا او تقريرا على طريقة « الحريرى » دون ان يتعرض لسخرية الساخرين ؟ ! ليس من اليسير ان اطلعك او اترجم لك مثل هذا الأسلوب « النموذجى » ! ولكنى اقول لك انه اسلوب يستخدم اللغة استخدام الجوارى للعود فى مجالس الانس والسكر بقصور هارون الرشيد . اسلوب غايته قبل كل شىء ان يبهر السمع النائم ويطرب الأذن المسترخية . لست ادرى أيجوز ان تجعل لغة من اللغات وسيلة لهو واداء براعة كفنون المغنين وألعاب الحواة ! ام ان اللغة اداة يسيرة لنقل الأفكار النبيلة ؟ إنى افهم ان يضرب مثل هذا الأسلوب مثلا للضعف والسقم لا للسلامة والبلاغة . فان التكلف ابرز عيوب الفن . كان « جويو » يقول ان الرشاقة فى فن الرقص هى اداء الحركة

الجثمانية العسيرة دون تـكلف يشعرك بما بذل فيهامن مجهود . تلك اولى خصائص الاسلوب السليم فى كل فن . حتى الحاوى الماهر هو ذلك الذى يخفى عن الأعين مهارته ويحدث الأعاجيب فى جو من البساطة والبراءة . لعل الـكاتب الوحيد الذى ضربوه للطلاب مثـلا فصدقوا هو « ابن المقفع » فى ترجمته لـكليلة ودمنة . هـذا كاتب تصنع فى اسلوبه هو الآخر ولـكن بخفة ومهارة ، وطلاه وجمله ولـكن بذوق وكياسة . فلم يبد عليه سماجة التـكلف ولا ثقل الصناعة. انه ذلك الحاوى البـارع ... او تلك الحسناء الذكية التى تطلى وجهها بالاصبـاغ ثم تمسح أثرها الصارخ ، فتظهر وكأن نضارتها نضارة الأصل والفطرة . ان « ابن المقفع » يجهد فى اسلوبه ليخفى أثر الجهد انه تلك الراقصة الرائعة التى تخفى حركاتهـا العسيرة فلا تبدو لنا منها إلا تموجات رشيقة يسيرة . هذا الـكاتب

هو على كل حال مثـل طيب للصناعة فى الـكتابة .
على انك إذا أردت أن تعرف حقا جلال اللغةالعربية فى بساطتها وسيرها قدما نحو الغرض : فاقرأها عنـد الفلاسفة والمؤرخين العرب . اولئك عندهم حقيقـة ما يقولون . فهم لا يضيعون أوقاتهم واوقاتنا فى العبث اللفظى والطلاء السطحى ، إنما هم يحدثوننا فى شئون فكرية واجتماعيه واخلاقية ودينية فى لغة سهلة مستقيمة لا لعب فيها ولا لهو ولا ادعاء . انى لأدهش كيف ان مؤلفين مثل ابن خلدون والطبرى وابن رشد والغزالى لم يعرضوا علينـا قط فى دراساتنا للأدب العربى بالمدارس ؟ ! كيف نعرف لغة بدون أن نطالع فلاسفتها ومؤرخيها ؟ أنستطيع معرفه الفكر اللاتينى دون ان نقرأ سنيكا ومارك اوريل وتيتوس ليفيوس وكورنليوس تاسيت ؟ ! لو انه عرضت علينا صفحة واحدة مع شرحها لكل فيلسوف بارز ومؤرخ مشهور

من فلاسفة العرب ومؤرخيهم لتغير رأى أكثر المستنيرين عندنا فى اللغة العربية وقدرتها على التعبير عن أدق الأفكار وأعلاها واعمقها وانبلها . . اوليس بهذه اللغة نقل ابن رشد وابن سينا اعمق آراء فلاسفة الاغريق إلى اوروبا المتعطشة للمعرفة ؟ ! انتم معشر الفرنسيين فعلتم ذلك فى تدريس الأدب الفرنسى .. ما من كتاب مدرسى صغر او كبر لا يذكر فيه نماذج من اسلوب « مونتانى » الفلسفى و اسلوب « روسو » الاجتماعى و «بوسويه» الدينى و«فولتير» التاريخى ... بل حتى أسلوب «موليير» الفكاهى أحيانا إلى حد الهريج .. ذلك ان المدارس الفرنسية ادركت ان تدريس اللغة يجب ان يشمل كل نواحى التعبير بها ... اما قصر تعليمها على نماذج البلاغة اللفظية الجوفاء فهو امتهان لكرامة اللغة وانتقاص من قدرتها على الأداء . فى العربية كاتب متعدد النواحى له

باع طويل فى الجد والهزل هو « الجاحظ » . هذا ايضا لم نقرأ له سطراً فى المدارس... كل كاتب عربى بسيط الأسلوب نافع لنا فى الحياة يقصونه عنا اقصاء بحجة انه غير بليغ... ويأتون إلينا بالكاتب الذى لا ينفع فى حياتنا إلا نموذجاً لاثارة السخرية!.. حتى الشعر وهو مفخرة اللغة العربية . الشعر الذى كان يجب ان ترى فيه نفوسنا المتفتحة أول لون من ألوان الفن ... ماذا انتخبوا لنا منه ؟ قصائد المواعظ والحكم ! .. هنالك حقا نوع من الموعظة والحكمة يعرف الشاعر الحق كيف يلبسها ثوبا من الصور الحسية والذهنية ترفعها إلى مرتبة الفن العالى ... (كما فعل أبو العلاء والمتنبى والنابغة الذبيانى فى بعض قصائدهم) ولكن الفرز والتمييز والتخير فى هذا الباب يحتاج إلى حاسة فنيه لا يملكها القائمون بهذا العمل . حتى الشعر الموسيقى والشعر التصويرى الذى عرضوا علينا بعض نماذجه (فى أعمال

البحترى وابن الرومى على الأخص) لم يكن من خير آثارها ... ليس كل شعر فنا عاليا لأنه يعظ أو يصور أو يرنم ... فالشعر الحق هو شيء أبعد كثيرا من مجرد اصابة الأهداف الظاهرة أو تحقيق الأغراض المباشرة . بل ربما انحط شعر فى عرف الفن العالى لأنه اقتصر على صياغة حكمة أو تصوير منظر أو احداث جرس .. انما الشعر الحق قد يتوسل بهذه الأشياء لبلوغ مأرب اسمى : هو الارتفاع بالناس إلى سحب لا تبلغ ، والرحيل بهم إلى عوالم لا تنظر. هو أن يريهم من خلال كلماته البسيطة ووسائله البادية أشياء لم تكن بادية ولا طافية فى محيط ضمائرهم الواعية . هو بالاختصار ذلك السحر الذى يوسع ذاتية الناس فيرون أبعد مما ترى عيونهم ويسمعون أكثر مما تسمع آذانهم ويعون أعمق مما تعى عقولهم...هذا هو الشعر وهـذا هو المقصود من كلمة « الشعر » فى

اطلاقها على كافة الفنون . ما من فن عظيم بغير شعر . أى بغير تلك المادة السحرية التى تجعل الناس يدركون بالأثر الفنى مالا يدركون بحواسهم وملكاتهم ...

لقد أثقلت عليك يا اندريه بهذا الحديث فى موضوع لا يعنيك كثيرا . ولكن من غيرك ابثه كل خواطرى .. ؟ تحمل ... م ؟

عزيزى اندريه

إمعانى فى بحوث الأدب العربى اليوم يجعلنى غير صالح للحديث فى شىء آخر . ولقد فرغت من مسألة اللغة فاذا مشكلة أخرى تقوم أمامى . هى ان الأدب العربى ذاته من حيث هو خلق فنى يبدو لى ناقص التكوين . والسبب فى ذلك بسيط أيضـا : إذا تأملت الآداب القديمة كلها وجدت أنهـا قد عاصرتها فنون كبرى . خذ مثلا مصر القديمة والهند والاغريق والرومان الخ ... لقد كانت المعابد العظيمة والتماثيل الرائعة خليقـة أن يعاصرها أدب يضارعها

فى قوة البنـاء ودقة التركيب وروعة الفن . (الملاحم والتمثيل والقصص) . ولـكن الذى حدث فى تاريخ الأدب العربى كان غير ذلك . لقد نشأت لغة نضرة زاهرة فى بيئـة قحلاء وسط الصحراء . لقد كان أقصى ما عاصر لغـة امرؤ القيس أو لبيد أو زهـير من مظاهر الفنون الأخرى تلك المسوخ والتهاويل لآلهة من الحجر . أطلقوا عليها الهبـل الـكبير والهبـل الصغير والعزى واللاتى الخ .. لا أحسب أحدا يجرؤ أن ينسبها إلى الفن فى قليل أو كثير . انه حقا لمن مفاخر اللغة العربية أن تبرز وحدها هذا البروز بين الرمال كأنهـا عرار أو أقحوان . ولعل الفضـل فى ذلك للشعر . فالشعر زهر قد ينبت فى الخلاء . أما النثر فيحتاج فى نموه إلى العمران . لكن جاء العمران بعـد ذلك بظهور الاسلام وتـكونت حضارة اسلامية واسعة الأرجاء . فأقيمت المساجد

الجميلة على انقاض الهيا كل القديمة . وشيدت القصور وملئت بالبدائع والطرائف . وتقدمت الصنائع وازدهرت الفنون . وابتلعت المدنية الاسلامية فى جوفها كثيرا من المدنيات . ومع ذلك فان الأدب العربى لم يحاول أن يزيد فى قوالب نثره ، أو أن يساير تلك الفنون المعاصرة ، حتى بدا للأجيال اللاحقة فى ذلك الفقر الظاهر . والواقع ان الأدب العربى الانشائى لا يختال للأنظار إلا فى ثوبين معروفين « الرسائل » و «المقامات» . والمقامات أعمال قصصية قصد بها سرد حكاية وتصوير أشخاص . ولكن الاغراق فى الوشى اللفظى والاحتفال بالوضع اللغوى صرف هم الكاتب عن التعمق فى التحليل والافاضة فى السرد والاجادة فى البناء . فالأدب العربى الانشائى قد عنى باللفظ أكثر مما يجب ولم يشأ أن ينزل عن تكلفه الذى يعتبره فصاحة وبلاغة ،ليصور ما يجيش

فى نفس الشعب من احساس ولا ما يهيجه من خيال . وهنا حدث أمر عجيب . ان روح الشعب لا يقهر . هـذا الشعب فى عصور الحضارة الاسلامية المختلفة قد تعطش للون جديد من الأدب غير لون البداوة الأولى . لون من الأدب مستمد من احساسه هو بالحياة الجديدة المتطورة المتغيرة ... أدب جديد قائم على فن مشابه ومساير للفنون الزاهرة المعاصرة ، التى يراها بعينه ويهيم فى مراميها بخياله . . . فلما لم يشأ أدباء الفصحى أن يمدوا الناس بحاجتهم ، لجأ النـاس إلى أدباء من بينهم لا يملكون أداة اللغة ولا جمال الشكل ولكن يملكون السليقه الفنية وروح الخلق . . . وهنا ظهر الأدب الشعبي . . . فما ظهور الادب الشعبي أحيانا إلا علامة قصور أوتقصير من الأدب الرسمى . او صرخة احتجاج على جمود الفصحاء ... هكذا ظهر القصص الشعبي فى صورة

عنترة ومجنون ليلى وكثير عزة ... الخ ... وسارت الحضارة الاسلامية فسار معها الأدب الخيالى الاجتماعى الشعبى فاذا نحن أمام عمل فنى رائع هو « الف ليلة وليلة » . ثم نبت فى كل شعب من شعوب الاسلام قصصه الذى يطبعه بطابع عصره . فكان فى مصر قصة « أبى زيد الهلالى » و « سيف بن ذى يزن » و «الظاهر بيبرس» الخ ... ومن الغريب انك إذا تأملت « التصميم » الفنى والبناء الروائى لهذا الأدب الشعبى وجدته من حيث الفن لا اللغة هو السائر فى الطريق الصحيح محاذيا تلك الفنون الجديدة التى قامت بقيام الحضارة الجديدة . فلقد كان من المستغرب حقا للباحث أن يرى حضارة اسلامية عظيمة ذات فنون زاهرة وعلوم راقية ولا يجد فى أدبها أثرا انشائيا مثل « الشاهنامة » أو « الرامايانة » أو « الالياذة » أو «كليلة» ودمنة » الخ .. حتى كادت تتهم العقلية

الاسلامية بعقمها . ولكن الأدب الشعبي الاسلامى صحح الوضع أمام التاريخ العلمى . واثبت ان الحضارة الاسلامية سارت فى مجراها الطبيعى . مع هذا الفارق: وهو انه فى الحضارات الأخرى الهندية أو الفارسية أو الاغريقية كان خاصة الشعراء والأدباء هم الخالقين لتلك الآثار . اما فى حضارة الاسلام فقد تخلى الخاصة عن بعض هذه المهمة لعامة أدباء الشعب وشعرائه ووقفوا بعيدين عن كل تغيير أو ابتكار ... حتى القرآن ما حاولوا أن ينتفعوا به انتفاعاً فنياً . لقد أتى القرآن بجديد فى فن الكتابة : لا اللغة وحدها ... بل القصص. لقد استخدم الفن القصصى فى التعبير عن المرامى الدينية السامية . ولكن المدهش ان الأدب العربى لم ير فى القرآن إلا نموذجا لغويا .. ولم ير فيه النموذج الفني ... فلم يخطر له استلهام قصصه أو الاسترشاد بها أو استغلالها استغلالا فنيا مستفيضا ... ان وحى

الأدب العربى لم يره أن يتحرك ... لا إلى أعلى ولا إلى أسفل ... لا نحو القرآن ولا نحو الشعب ... من الانصاف أن استثنى واحدا هو «الجاحظ» . ان هذا الكاتب شعر فيما يبدو لى بالغلطة . فسلك مسلكا آخر ... ونزل إلى الشعب يستوحيه . ويصور أسواقه وبخلاءه ولصوصه وتجاره وشرفاءه وخبثاءه . . . فى أسلوب بسيط حى يعد مثلا طيبا للنثر التصويرى فى عصور الحضارة والعمران ... وهو بعينه الأسلوب الذى أثار على الجاحظ المسكين نقد المتنطعين من أدباء عصره فرموه بالعامية والركاكة والابتذال ... وأريد ان أستثنى أيضا بعض الجانب الفنى لمقامات بديع الزمان . فهو من حيث رسم أشخاصه وتصوير المجتمع فى عصره يكاد يعطينا أحيانا صورا ناطقة على صغرها ... تذكرنى بصور «المنياتور» الفارسى . ولم يفسد هذا الأثر الفنى إلا أسلوبه اللغوى . فلو انه

وضع بلغة الجاحظ فى بخلائه لـكان أدنى إلى الـكمال .
ولـكن هذا الأثر لم يكتب فيما يظهر إلا لابراز رصانة اللغة وثراء اللفظ وبراعة السجع . أما الفن فلم يخطر للـكاتب على بال ... الواقع أن تباهى أدباء العربية بالثروة اللفظية والمهارة اللغوية كاد يقتل النثر العربى نفسه ، فلم ينقذه من هـذا المصير ، كما قلت لك ، غير طائفة الفلاسفة وفقهاء الدين والمؤرخين ومن شابههم من الباحثين الجادين . وان مؤرخى الأدب أو رواته على الخصوص كان لهم أعظم الفضل فى تيسير اللغة العربية والباسها حلة نضرة دون التجاء إلى التصنع المعوج : « الأغانى » و « العقد الفريد » و « نهاية الأرب » و « الأمالى » و « النوادر » و « البيـان والتبيين » الخ ... على أننا بعد ذلك إذا طرحنا جانبا أعمال مؤرخى الأدب ورواة أخباره . على اهميتها وسلاسة لغتها ، وأردنا أن نبحث عن فن أدبى يعد

فى ذاته خلقا انشائيا فنيا لما وجدنا شيئا يضارع الأدب الشعبي فى : الف ليلة وليلة وعنترة ومجنون ليلى وأبى زيد الهلالى الخ . فهذه الآثار على الرغم من انعدام الروعة اللغوية فيها وضياع الجانب الشكلى اللفظى قد استطاعت أن تؤثر بمجرد فنها . ذلك ان القوة الخالقة فى روح الشعب لم تضل لحظة عن طريقها إلى الخلق الفنى . ومع ذلك فقد ظل الأدب الشعبي حتى اليوم غير معترف به فى تاريخ الأدب العربى . بل ان أثرا خالدا مثل « الف ليلة » اعترفت به اليوم كل أمم العالم ... ونقلت قصصه إلى كل لغة ووضعت فى كل يد ... حتى أيدى الأطفال ... (تذكرت الآن ان ولدك الصغير جانو أدهشني يوم قابلته أول مرة فى كوربفوا فقص على اقصوصة علاء الدين والمصباح على نحو أثار عجبى) هذا الأثر الفنى المشرف لم يعترف به أديب عربى اعترافا صريحا . لقد انطوت قرون

وما يزال هـذا السد قائما كأنه سد الصين بين النثر العربى بسجعه وبلاغته المصطنعة وبين خيال الشعب ورغباته وآماله .. لو أن أدباء اللغة الفصحى هدموا هذا السد من قديم ونزلوا عن بعض جمودهم وسايروا تقدم الفنون فى زمانهم وعبروا عن مطالب عصرهم وشعبهم لكان الأدب العربى اليوم فى مقدمة الآداب العالمية . فليس الروس هم أساتذة القصة ولا الانجليز ولا الفرنسيون ... بل نحن بما لدينا من قرآن عرف القصص . وما خلقنا فى مجتمعنا من اشباه عنترة وألف ليلة وليلة وما وضعنا فى لغتنا من مقامات تعد أساساً لفن الأقصوصة لأحق من يزعم بأننا أساتذة هذا الفن الروائى .. لكن وا أسفاه ... هم أولئك الجامدون الذين وقفوا حيث هم وتركوا لغيرهم تلك الكنوز يغترفون منها ويربون عليها .

ان هـذا الذى أسميه سدا بين الجامدين والمجددين ..

أو هذا السد بين الأموات والأحياء كان دائما موجودا في تاريخ كل لغة . . . ألا تذكر « دانتي » وكيف حطم هذا السد يوم أصر على أن يكتب « الكوميديا الآلهية » لا باللاتينية لغة العلماء في عصره بل بالايطالية لغة الناس في زمانه .. و « مسترال » يوم وضع ملحمته الشعرية الرائعة « ميراى » بلغة الريف الفرنسي، وهي لغة لم أستطع فهمها مما ألجأني إلى قراءة ملحمته في ترجمتها الفرنسية العصرية . ومع ذلك لم تحل لغة الريف دون تسنم ذلك الشاعر قمة المجد واعتباره من أكبر شعراء فرنسا والعالم، لأن اللغة لم تكن يوما حائلا في اوروبا دون تقدير الأثر الفني في ذاته . أما عندنا فهي حائل دون مجرد الاقتراب منه ... كأنما هو شيء مزر بمقام فضلاء الأدباء . لهذا لم نجد أديبا عربيا جرؤ على النظر في آثارنا الشعبية الرائعة من حيث هي فن وخلق طارحا مسألة لغتها

جانباً متغاضيا عما فى هـذه اللغة من اسفاف وقصور وعدم كفاية . لقد رضى الفضلاء أن ينظروا فى تاريخ الجبرتى وهو تقريبا باللغة العامية . ولم يرضوا أن ينظروا فى الف ليلة وليلة وهو اسلم لغة فى نظرى من كتاب الجبرتى . لـكن السبب عندهم : أن ذلك تاريخ وهذا أدب . والأدب فى عرفهم مرادف اللغة .. فاللغة .. اللغة هى لدينا شبح الأدباء المخيف . نحن عبيد ذلك الميراث من الألفاظ والعبارات والتراكيب التى وجدناها داخل صناديق المعاجم العتيقة وكتب اللغة القديمة .. اننا ننظر فيها بحرص خشية أن ينفذ اليها نور هـذا العصر أو نسيم هذا الزمن فيعبث بنسيج عنكبوتها المقدس ! يالشبح القدماء المروع ! . يا لشبح الأموات الذى يرهب كل من يعتبر اللغة كائنا حيا يتغير ويتطور، وكل من يحاول التصرف فيهـا طبقا لمطالب العصر وروح الزمن .. ان اعتصام الموتى ومن معهم خلف

ذلك السد الهائل الذى يقصيهم عن عالم الأحياء بنزعاته الجديدة وأذواقه الخاصة ومقاييسه الشخصية كان هو السبب فى قيام حركات التجديد والاصلاح والنهضة رافعة معاولها فى وجه ذلك السد ... كل عملية تجديد وبعث ليست سوى تحطيم السد بين عالم الأموات وعالم الأحياء . أعتقد أن « الجاحظ » فى مسألة اللغة والتصوير الشعبى وقف بعض الشيء موقف « دانتى » . وحاول أن يحطم ذلك السدقليلا . ولو أن الأمور سارت بعد ذلك سيرها الطبيعى طبقا لشريعة التطور لتقدمت اللغة العربية منذ زمن بعيد . ولكن الغريب أن نجد كاتبا فى هذا العصر مثل «المويلحى» عندما أراد أن يصور الشعب المصرى ـ وهو اتجاه طيب ـ فى كتابه « عيسى بن هشام » لم يستعمل لغة « الجاحظ » ولا حتى لغة « ابن المقفع » بل استخدم لغة الحريرى وبديع الزمان!

بماذا نفسر ذلك ؟ إلا أن يكون هـذا هو الاختيار الطبيعى الجديد بعصر نكاس وانحطاط ! على أن البوادر تدل اليوم على نزعة جديدة فى أسلوب الكتابة . . . وان كانت القوالب الأدبية لم تتنوع كثيرا .. ولعل باب « المقالة » هو أبرزها مكانا وأسرعها سيراً فى طريق التطور والتجديد . . غير أن الشعور العام بضرورة التنويع فى الأساليب والأبواب يسرى الآن فى الطبقات المستنيرة ... ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

إنى أضع دائما نصب عينى تلك المصادر الثلاثة استلهمها فنيا : القرآن ، والف ليلة وليلة ، والشعب أو المجتمع .. ولكن الأسلوب ... الأسلوب . لطالما شغلتك معى بالحديث عن الأسلوب الفنى الذى أبحث عنه . أين أجده اخيرا ؟ .. ومع ذلك فى وهمى انه قد يكون على مقربة منى دون أشعر . لم لا يكون هو ذلك « الحوار » الذى انفقت فى ممارسته وقتا طويلا؟ انه « القالب » الذى بدأت معالجته — كما تعلم — قبل نزوحى إلى اوروبا . ومن أجله انصرفت حتى عن

الـكتابة السياسية « المحترمة » فى نظر أهل بلادى ... لا يمـكن أن يكون هـذا الوقت والجهد قد انفقا عبثا ... لم لا تقول ان « الحوار » هو أسلوبى الذى اتحرق بحثاً عنه ؟ لقد كان هو كما تعلم النـاحية التى استرعت نظر من أطلع على مخطوطاتى فى فرنسا من أدباء وفنانين . آه ... لو أمـكن ادخال «الحوار» قالبا أدبيا وبابا مرعيا فى الأدب العربى ... ؟

حاشية — أتدرى يا اندريه لماذا لا أتوقع نجاحا ؟ لأن التمثيـل فى بلادنا أو « التشخيص » هو حتى اليوم بمعزل عن « الأدب » . فالرواية التمثيلية عندنا شيء يمثل ولا يقرأ . وربما كان للأدب عذره ... فالتمثيلية لدينا لا يمكن أن تقرأ ، لأنهـا قائمة على مجرد الحوادث المثيرة والحركات والمفـاجآت . . ولا

تعرف بعد الحوار القائم على دعائم الفكر والأدب والفلسفة ... لكن إذا وجد هذا الحوار الأدبى الفكرى الصالح للمطالعة ... فماذا ترى يكون موقف الأدب العربى منه ... ؟

الاسكندرية فى . .

عزيزى اندريه

لا يزعجك سيل خطاباتى المتدفق عليك . فانى أذكر قولك ان رسائلى تنفعك أحيانا ، لتلف » فيها فرشاة أسنانك وأدوات حلاقتك وأزرار قميصك ومختلف حوائجك الصغيرة فى اسفارك بين ليل وباريس . فما يضيرك اذن استلام الخطابات الكثيرة؟ ما دمت لا تجيب ولا تتكلف شيئا . لعل لكتابتى اليك اليوم سببا واضحا معقولا : فاليوم هو عيدنا الكبير والموسيقى تعزف بالأبواب طالبة ما نسميه « العيدية » . والأراجيح منصوبة . والصبيان

والأطفال يتصايحون وينفخون فى المزامير الصغيرة بملابسهم الحمراء الفاقعة والصفراء والخضراء . والجميع يقول بعضهم لبعض (كل عام وأنتم بخير) فلماذا لا أقول لك أنت أيضا هذه الجملة ...

ثم هنالك سبب آخر هو اننا فى هذا العيد نضحى بخروف . ولقد أكلنا يا سيدى اليوم ضلع خروف محمر . ووالله لقد تذكرتك . ولعلك أحسست اللحم المحمر فى بطنك . وقد أكلته باسمك كما أكلت أنت باسمى فى ليل « دستة » المحار الأخضر الذى أحبه . لكن وا أسفاه ! كان ذلك فيما مضى . أما اليوم فأنا أحس ببطنى « الزفت والقطران » . فماذا تراك تأكل الآن باسمى ؟!

لست أدرى لماذا أتذكر الآن كثيرا موقفى معك فى باريس قبيل سفرك إلى ليل . فقد كان بخلى مخجلا وقسوتى شديدة . إذ رفضت اقراضك كل

ما كنت محتاجا إليه . وأنا على علم تام بأنى لن ادعك حتى اقرضك ما شئت . ولكنى أردت تعذيبك . فجعلت ألوح لك بالمحفظة ، وجعلتك تتبعنى ذليلا فى كل مكان . حتى قهوة « مونمارتر » . إنها كانت ليلة عجيبة . أتذكرها يا اندريه ؟ لقد قلت لك : لا نقود إلا بعد سهرة ممتعة . فقد تكون هى سهرة الوداع . . . (وقد كانت) ... وعهدت إليك بمهمة اقتناص ظبيتين ، لما لك من خبرة فى هذه الأمور . فجلسنا فى ذلك المشرب المائج بالظباء إلى قبيل الفجر نتجاذب أطراف الفلسفة والفنون . وجرفنا الحديث فى لبنيتز وكانت وديكارت وبرجسون ونظرية الجمال فى الفلسفتين الألمانية والفرنسية ... فنسينا ما كنا قد جئنا لأجله . وأغلقت المشارب وأطفئت الأنوار ؛ فقمنا خائبين نتعثر فى أذيال عاهرات الحى بأثرات آخر الليل . ونحن نسأل لنفسينا السلامة من شر « الأپاش » الأوباش

وفجـأة إذا بك تشمر كأن ذراعا تضرب فى ظهرك ، فالتفت مذعورا فاذا هى عاهر شوهاء تستوقفك ، فخلصت نفسك بعد جهد وقد هـدأ روعك بعض الشيء وقلت لى : « كنت أحسبها لصا » ! وفاتت مواعيـد المترو ووقفت المواصلات . فلم يكن بد من تمضية ما بقى من الليل فى حجرتى القريبـة بشارع روششوار . وهى جحر فأر . وكلها ليست غير سرير وتحت سرير . فقسمناها بيننا بالقرعة . فكان حظك أن تحتل أنت الأرض تحت السرير . وما كدت أتمدد على فراشى حتى صحت بى ان لا نوم يرجى لى إلا إذا ظفرت أنت بمبلغ القرض قبل النوم . فمنعنى النعاس من منـاقشتك الحساب والاستمرار فى تعذيبك . فدفعت إليك المبلغ وأنا نصف يقظان . ونمت واستغرقت فى النوم فلم أنتبه إلا بعض انتباه إليك وأنت تحاول إصلاح جرس « المنبه » المكسور

ليوقظك فى منتصف السابعة . ولست أدرى بعد ذلك هل طاوع المنبه الضيف الكريم فأيقظه فى الموعد المطلوب ... ؟ كل علمى انك استيقظت مبكرا مثل العفريت وملأت الحجرة جلبة وضجيجا . تارة تفتح الأدراج بعنف للبحث عن منشفة وجه نظيفة . وتارة تشد مسن آلة الحلاقة ، وقد وضعت فيها سلاحا جديدا هو الوحيد الذى كنت أدخره لأيام نزهتى . وتارة تزيل الغبار عن ثيابك وقبعتك بصوت كالرعد... وأخيرا ... سمعت باب الحجرة يفتح ويغلق ... ثم ... ثم لم ارك بعدئذ قط .. ؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

اهنئك أولا بعودتك إلى باريس ، ولو ان خبر مرض جرمين أحزنني غاية الحزن . وإنى لأوصيك أن تتبع الحيطة فى علاجها وأن تعنى بها العناية كلها مهما يكلفك ذلك من نفقات ...

إن رسائلك يا اندريه تفتح أمامى أبواب موضوعات ، إذا طرقتها فلن أستطيع الخروج منها قبل أن أملأ صفحات . جاء فى خطابك السابق كلام طويل عن نفسى وصفاتها وعدم صفائها . أمر لم أرد عليك فيه بنعم أو بلا . على انى حسبت انى أجبت

عنه في موضع من المواضع . أو ربما كانت اجابتى فى شىء آخر . ان مصيبتى هى فى عجزى عن اخراج ما فى نفسى كما تصورته أول مرة . ان الفكرة لتتكون في نفسى ، وتنمو وتمتد وتتخذ شكلا منتظما فى رأسى . بل إنى لأنفق أياما فى بناء الأشخاص فى مخيلتى ؛ وترديد ما يقولون من كلام وما يتحاورون به من حوار ، ولا يبقى إلا أن امسك بالقلم لأضع على الورق كل هذه الحياة الزاخرة النابضة. فاذا .. وا أسفاه ، شىء آخر باهت بارد كالجثمان الهامد هو الذى يخرج . عمل واحد استطاع أن ينجو من هذه النهاية : عمل دفعتنى نفسى إلى كتابته ، دون أن استجمع فى رأسى شيئا من تفاصيله أو أستحضر فى خاطرى دقائقه وأجزاءه . ومن الغريب ان الأشخاص تكونت وتلونت وكأنها تخلق وجودها بذاتها ؛ وسارت القصة بأشخاصها وبى إلى حيث

لا أدرى : إلى أن أخبرتنى الأشخاص أنفسها بالنهاية المحتومة التى لابد لها أن تنتهى إليها ...

لماذا أكتب إليك كل هذا الهراء ؟ انت الذى برهن لى فى فترات على قلة اكتراثه بما أصنع وبسخريته من آلامى وقلق النفسى وشكوكى وأزماتى ! لطالما حرصت مع ذلك على اخفاء أغلب هذه الأشياء عنك . ولا تغضب علىّ . لقد شعرت فى يوم من الأيام أن صداقتنا لا ترتكز على التشابه ولا الاتفاق ولا الاتحاد . لقد كنا طرفى نقيض . لم يكن لى حتى حق الافضاء إليك بما يملأ كل كيانى الروحى . اتدرى ما هو هذا الشىء الذى كان يملأ كل كيانى الروحى ؟ هو حمى الخلق الفنى . لقد كنت أخشى استهزاءك بهذا الشىء المقدس عندى : انى ما كنت أطلعك إلا على ما أطيق تعريضه لسخريتك . انك ما كنت تستطيع أن تفهم ما كنت انا فيه وقتذاك .

لقد كنت انت رجل « واقع » أكثر مما ينبغى « لشاعر » ... هل كان فى مقدورك فهم تصرفاتى الجنونية فى ذلك الحين ؟ تصور انى قضيت شهورا أجهد ليل نهار فى عمل أدبى جديد استغرق هو الآخر مئات الصفحات . ولم أفطن لنفسى إلا يوم جاءتنى تلك البرقية تدعونى إلى العودة إلى بلادى . كان فى البرقية هذه العبارة : « احضر بأول مركب . تعيينك تقرر » . وتسلمت بعدئذ نقودا للسفر وخطابا يوضح لى فيه امكان شغلى وظيفة بالنيابة العمومية المختلطة . عنـدئذ شعرت بما يشعر به ملاك فى السحب وهو يهوى إلى الأرض ! أنا ؟ أنا الذى يعيش فى سماء الفن يفـكرون له فى وظيفـة من الوظائف ! هؤلا الناس قدجنوا من غير شك ! كيف يخطر على بالهم أن يوظفوا ملاكا من ملائكة السماء ! وأعدت النظر فى خطاب أبى الذى يقول فيه : انه لا يرى حتى ذلك

الوقت فى بلادنا شخصا انفرد بحرفة الأدب دون أن يكون له عمل آخر هو عماد حياته وقوام عيشه ... وقال « انه لا يصح القياس مطلقا بما هو حاصل فى اوروبا . فان الوقت لم يحن بعد فى بلادنا لأن يضحى أحد بمستقبله فى سبيل الأدب مثل هذه التضحية التى لا تدرك البلاد قيمتها ولا تشعر بها ولا بصاحبها .. »
لعل فى هذا الكلام صوابا . ولعلى طلبت إلى أهلى أكثر مما تحتمله الطبيعة الأبوية . واردتهم أبطال قصص يأخذون الحياة كما أتخيلها أنا . هنا فقط تذكرت لأول مرة مسألة « أكل العيش » نعم . ينبغى أن أكسب لقمتى على الأقل . فأنا مخلوق يأكل ويشرب . ولم يغب عن والدى كل ما يحتمل صدوره منى فنص فى خطابه : « لن أنفق عليك مليما واحدا بعد الآن إذا أخذت المال المرسل للسفر فصرفته فى غير وجهته ولم تحضر ؛ وضاعت الوظيفة

بسببك » . ما العمل ؟ ومخطوطاتى الأدبية لم تتم . إنى فى حاجة إلى عامين آخرين فى هـذا الجو الفنى لأكمل عملى . لقد تغلبت إلى حد ما على صعوبات الخلق والتـكوين . ولـكن هناك صعوبة الأسلوب. إنى أكتب بالفرنسية . فلابد لى من امتلاك ناصية الأسلوب الفرنسي . وخاصة ذلك الأسلوب الحديث الذى يشبه موسيقى « سترافنسكى » الحديثـة فى تعدد ألوان عباراتها وبريقها الخاطف بالصور ومفرقعاتها المدوية بغريب المعانى ، كأنها سواريخ الأعيـاد والـكرنفالات . لابد لى من المـكث بباريس عامين آخرين . كيف السبيـل إلى ذلك ؟ هل يستطيـع اندريه أن يقـاسمنى نصف نقوده ؛ ونعيش فى حجرة « منسارد » كحجرة ايفـان ، ونأكل أكل الـكلاب من أجل « تخريفة » لتوفيق الحـكيم ! ! هذا ما كان اندريه لا شك قائله ! اطمئن يا اندريه .

لم يخطر ببالى قط خاطر كهذا . ربما كنت قدفكرت لحظة فى البحث عن عمل بباريس ، ولعلى فكرت فى الالتجاء إليك لتجد لى مكانا صغيرا فى أحد المصانع . ولكنى طردت من رأسى هذه الفكرة على عجل . فأنا أعلم صعوبة الحصول على عمل حتى للفرنسى ، فى زمن كثر فيه العمال العاطلون . وان وجد العمل فان نفسى ليشق عليها مزاحمة الفرنسى فى بلاده على انتزاع اللقمة من فيه . وأخيرا رأيت كما تعلم ان الأولى بى الاصغاء إلى نصح مسيو هاب وترك الكتابة بالفرنسية . ووضع عملى من جديد فى لغتى ولغة بلادى التى لازمتنى منذ الصغر . فأنا فى الحقيقة لا أريد مطلقا أن أكون مثل اولئك (اللقطاء) من الاجانب الذين يلجأون إلى الفرنسية لأنهم لا يملكون لغة قومية عريقة . . . انما هو الاصرار العنيف على أن أنتزع من باريس ما يقنعنى بأنى

حقا قد أصبت من الادب والفن شيئا . . . وما يقنع أهلى المساكين بأنى لم اضع حياتى سدى ... لكأنى أردت من باريس شهادة أعود بها فى موكب زملائى من دكاترة الحقوق الراجعين بألقابهم العلمية الظافرة ... ولكن باريس خذلتنى ... وأفهمتنى أن الخلق الفنى شيء آخر ... وان الطريق إلى الفن طويل وعر ...؟

الاسكندرية فى . . .

عزيزى اندريه

أمس فقط طالعت رســالة قديمة منك ، حينما كنت فى « ليل » ، فاذا أنت تصفنى بأنى ذو قلب طيب صــاف . بل أكثر من ذلك : قلت انى من « اولئك الأصدقاء النــادرين فى الصداقة » . وتلك كلماتك بنصها . أتنــكر الآن ما قلت ؟ لقد أخبرتك ان هنالك أشياء أو على الأقل شيئا واحدا لاأجرؤ على مصارحتك به ، لأنى لا أطيق أن تتنــاوله بسخريتك . شىء كنت أقدســه ، كما قلت لك ، بكل ما يستطيعه قلب شاب طائش . لم يكن الحب ؛

يا صديق ، فى باريس بالقوة التى تخرجنى عن التوازن . إنما الذى أخرجنى عن طورى هو حب الأدب . وحلت المطامع الأدبية عندى محل المطامع العاطفية. ولكل حب « عذال » كما نرى نحن أهل الشرق

قد كنت أنت عندى « عاذل » الأدب . ترمينى بالخيال والجنون بحجة ردى إلى حظيرة العقل والواقع. لذلك ما كان ينبغى لى أن أطلعك على جنونى الأدبى ومطامعى الأدبية إلا بمقدار . فهل ترانى راوغتك أو أخفيت عنك شيئا غير هذا الشىء ؟ ومع ذلك ، دعنا من كل هذا . انها باريس . انها كانت باريس . آه يا عزيزى اندريه . انها عندى كانت حلما . وكل تصرفاتى فيها انما هى من قبيل تصرفات الأحلام ! ما كنت أسير بمنطق العقل قط . ولكن اعرفنى الآن ... ها هنا .. وأنا هادىء . وأنا فى اليقظة . وبعد ؟ فلماذا تشاء ان تحدد طبعى وشخصيتى الآن

ألم أقل لك مرارا انى شخص غير مفهوم الآن حتى لنفسى ! على أنى أعتقد أنى خلقت للخير لا للشر . وإذا نفذ إلىّ الشر فمنكم انتم يا أصدقائى ومعارفى . اندريه : ما هذا الانقباض والاكتئاب فى آخر رسالتك ؟ إنك تذكرنى بتوفيق الحكيم فى إحدى أزماته القلبية والفكرية بباريس ! ولا عجب لمثله إذ يكتئب هنالك وينقبض على الدوام ، فلقد كان تعسا حقاً . خائبا فاشلا فى كل نوع مارسه من أنواع الحياة ، خاب فى الجامعة ، وخاب فى الحب ، وخاب فى الأدب . لم يظفر قط بانتصار فى شىء ما . ذلك الانتصار اللازم للشباب كى ينتعش ، لزوم الأمطار للأزهار ! لقد صفعه الحب على الخد الأيمن ، ولطمه الأدب على الخد الأيسر . ثم وقع أخيرا ذليلا على أرض العذاب النفسى إذ تذكر انه ما زال يعيش من مال أهله . فهو ليس حرا حتى فى الفشل . وليس له

الحق حتى فى حرية الرضا بالشقاء . ولكن انت يا اندريه ؟ ما الذى يقبض نفسك ويملؤك اكتئاباً ؟ لعله منظر الخريف الكئيب حولك وتساقط الأوراق الصفراء . ان قلب الشاعر « مقياس حرارة » يتأثر أحيانا بمظاهر الطبيعة ، فيبكى لبكائها ، دون سبب آخر يدعوه إلى البكاء . لم يتح لى فى لحظة من لحظات حياتى أن أحزن لحزن الطبيعة أو أبسم لابتسامها . فانّ ما عندى من أزمات داخلية شغل قلبى دائماً عن الطبيعة . ان عينى مصوبتان دائما إلى أعماق قلبى ! آه لو نزع عنى قليلا هذا « الجراب » المملوء بالأرزاء ! يبدو لى يا اندريه انى إذ أرفع بصرى إلى الحياة الخارجية وأنسى نفسى الداخلية ، يعود إلى الصفاء ويشرق وجهى بروح الفكاهة والمرح . إنى أستطيع أن أكون أكثر الناس مرحا ودعابة وضحكا . فأنا أملك هذه الروح الفكاهية أحيانا . ولكنى

لا أجرؤ على الابتسام طويلا . لا تحسب يا اندريه ان أسباب كآبتي وضعف ثقتي بنفسي قد زالت الآن . على النقيض . ومع ذلك فهـا أنت ذا تشعر بتغير في حالتي النفسية . الواقع انى تغيرت . فأنا هـادىء ، صاف . مطمئن . فلا حمى ولا حرارة ولا حماسة .. ولا شيء يهزني من تلك الأشياء . ربما كان هذا لأنى لم أعد أطمع بعد فى شىء . فأنا أسير فى يد الزمن كما يريد لا كما أريد .

معذرة إذا كنت أتجنب الكلام في انقباضك انت ، فأنا أحب ان تعلم انى لا أعيره أهمية ولا التفاتة . وإنى لأراه غمامة سوداء من غمام الخريف . ان ثقتى فيك وفى قوتك وفى نجاحك فى الحياة لعظيمة . وختاما أنصح لك أن تصحح عقيدتك فى مرة أخرى ... ؟

طنطـا فى . . .

عزيزى اندريه

أهنئك « بالنويل » وبالعام الجـديد من مدينة « طنطا » ، فقد عينت وكيلا للنيابة بهـذه المدينة . انهـا عاصمة اقليم يعد أكبر أقاليم القطر المصرى . لك أن تفخر اذن بصديقك بعض الفخر ! لن أمضى فى الـكتابة لأنى غير متتبع ما تفعل الآن . فقـد انقطعت بيننـا السلسلة . وأخشى أن تـكون غير مستعد لانفاق بعض الوقت فى مطالعتى .

إنى مطمئن كما ترى بعض الاطمئنان . فالعمل فى القضاء قد قضى على كثير من هواجسى الأولى .

إنى أبت الآن فى حياة الناس ، وأطلب رؤوس الناس. فيجب على الأقل أن يكون لى رأس يدرى مايصنع. ومع ذلك . كلا . . لست فى الاطمئنان الذى تظن . اكتب إلىّ . اكتب إلىّ يا اندريه كما كنت تصنع من قبل . انك لاتدرى خطورة سكوتك!..؟

طنطا فى . . .

عزيزى اندريه

رسالة منك ... أخيرا ؟ ! آه صدق من قال ، وأنت نفسك القائل : ان لا يجب ان آخذك أحيانا على سبيل الجد . لو علمت كيف أقلقت الدنيا فى نفسى وأقعدتها لسكوتك . وأخيرا ها انت ذا تتكلم فاترا باسما تلك البسمة الساخرة لتقول لى فى هدوء وبساطة: «لماذا كل هذه الأهمية التى تريد أن تعطيها لسكوتى؟!» يا لله ! بماذا أجيب ؟ لا شىء . ان الحق لا شك فى جانبك .

والآن فلنتحدث . تقول إنك لا تكتب إلى

لأنك الآن تعيش بلا تفكير . عجباً . أو لا يمكن أن تكتب إلى بغير أن تفكر . أحقاً أن اتصالنا الكتابي له عندك كل هذا الاعتبار ! أتراه قد سلم من عبثك وهزلك ؟ وما عساك تقول إذا أخبرتك انى الآن أبعد منك شوطا فى هذا السبيل . عبثا تحاول اليوم أن تتعرف فىّ محب الأدب والفن والتفكير . كلمات كانت هى كل حياتى منذسنوات، وان شئت فمنذ ... وجودى . تقول ان ليس لديك الوقت الآن للمطالعة والتفكير . فان الحياة قد جرفتك فى خضمها . هذا حسن . أما أنا : فحتى ان وجدت الوقت فلست واجدا الجو ولا المحيط ولا البيئة ولا المناسبة . كل ما يكتنفنى اليوم من مناظر وجماد وانسان لا يثير فىّ شيئا مما يرفع النفس فوق ذاتيتها، فكل ما حولى هو مما يهبط بالنفس أدنى من ذاتيتها. إنى أعيش فى جو الجريمة . وأحيا فى عالم الغرائز

الدنيا . إنى مع القبح الآدمى ، المادى والمعنوى ، ليل نهار ووجها لوجه ! La Laideur !.. La Laideur .
أهذه هى الحقيقة ؟ أهذا هو عالم الواقع الذى كان ينبغى أن أهبط إليه ؟! لعلك تريد أن تسألنى متعجبا : كيف أنت كوكيل نيابة ؟ » لأنك مازلت تعتبرنى الشخص الغارق فى الخيال . ولم تستطع قط أن تصحح من رأسك تلك الصورة . وا أسفاه ! .. لو علمت كيف تحطم اليوم هذا التمثال ! الأدب والتفكير لم يبق معى منهما شىء . تقول فى آخر رسالتك انك بدأت مع ذلك تطالع « تاريخ الفلسفة » و « أرسطو » .
واهاً لنفسى وما وصلت إليه ! لكم كنت أود لو أظل طول حياتى فى تاريخ الفلسفة . أى جمال فكرى تحرمنا اياه الحياة لتقذف بنا وسط هذه الجثث والأشلاء ! ولكنك أردت لى يوما أن أواجه عالم الواقع . فهاك ما أردت . ها أنذا فى عالم الجثث

والجيف ! . أنا الخيالى الذى لايعرف من الانسان إلا ما فى الكتب (الفلسفية أيضا) ، أقف الآن فى كل يوم على عمليات تشريح جثة الانسان ! اناالذى اعتقد فى نفسه طويلا رقة الحس إلى حد الارتعاد من منظر اصبع تجرح . مما صرفنى يوما عن التفكير اطلاقا فى دراسة الطب ، آمر الآن طبيب المركز بتقطيع أوصال الجثث بالمشرط فى حضرتى لأنظر إلى تجاويف الصدر والقلب والأمعاء . أنا الشاعر مرهف الشعور ، أطلب وأشاهد الجزر والتقطيع ولا أرتعد . أنا الذى كان يحسب الانسان . كما صورته الكتب وتخيله الشعر ... لقد فهمت الآن انى حقيقة كنت طفلا إذ كنت أجهل من اى شيء نتركب نحن . ولكنى من جهة أخرى فهمت أيضا كلمة «جوته» : «ان العلماء يزعمون انهم فهموا الانسان وقد نزع عنه أثمن شيء فيه ؛ بل كل شيء فيه ...

(ربما قصد الروح وحياة الحواس) ! . من المستحيل على من لم يحضر التشريح قط ان يدرك معنى كلمة « جوته » على حقيقتها . لقد افادنى التشريح فى شىء : لقد خرجت منه وانا اشد ايمانا بالروحية من قبل ، وأقوى ايمانا كذلك بأنى رجل يستطيع احيانا فى سبيل حب المعرفة ان يكون غليظ الكبد فاقد الشعور ... وبأنى رجل يدرك ايضا قيمة الحواس المادية فى الانسان ... اجل يا اندريه . درس التشريح ثبت ايمانى بالروحية والمادية معا فى كيان الانسان . وجعلنى اتأمل مرة اخرى واعيد النظر من جديدفى قضية الأدب . واتساءل ما رسالة الأدب إلى الناس ؟ ... أهو نصرة الروح ام نصرة المادة ؟ لقد اعتاد المفكرون تحقير المادة للرفع من شأن الروح . ولكن أليس للمادة صوفيتها هى ايضا ؟ ! ان العين النشوى بمنظر جميل ، والأنف السكران بشذا

عاطر . والفم الهانىء بمذاق لذيذ .. وكل حواسنا التى تصلنا بعالم المادة لقديرة احيانا ان ترفعنا إلى سعادة شبه روحية . كلما تنبهت هـذه الحواس وتيقظت وتدربت وعرفت كيف تستخلص من المادة اجمل ما فيها ... هنا استطيع ان اقول لك ان الأدب العربى على ضعفه البنائى وفقره فى القوالب الفنية ـ كان غنياً فى مراميه واتجاهاته . فهو لم يطرح من حسابه الاشادة بالسعادة التى تبعثها الحواس المادية ، الى جانب اشادته بالمتعة الذهنية التى تصدر عن قوانا المفكرة. ففى اغلب كتب الأدب العربى تجد فصولا طوالا عن مباهج الأكل والشرب والطعام والخمر والمسك والريحان ومتع الملبس وحتى متع الجسد او ما يسمونه « الباه » .. كل ذلك يسجلونه بعناية لا تقل عن عنايتهم بالفصول الأخرى التى يدونون فيها لذائذ العقل وطرائف البيان . وهم يكتبون وينظمون فى

موضوعات حسية مما نسميها شائكة بصراحة تامة .
لأن «الفضيلة» عندهم سلوك ومعاملة ورجولة وشهامة
لا انكار لمطالب الحواس ولا إغفال لقوانين الطبيعة..
ذلك في نظرى دليل الحيوية . وانى لم ادرك معنى
« الحيوية » على نحو عميق الا يوم حضرت (التشريح)
عند ذاك بدأت ارى ان رسالة الأدب ليست نصرة
الروح على المادة او نصرة المادة على الروح . انما
رسالته اقرار التوازن بينهما بانماء هذه (الحيوية)
في كل منها . لأن (الانسان الحى) حقا هو ذلك
الكائن الذى تيقظت فيه كل حاسة وملكة . مادية
او روحية . وتكونت وتهذبت حتى استطاعت ان
تحصل له وتتخير اجمل ما في الوجود من عناصر
السعادة الروحية والمادية . . . اعتقد ان تلك غاية
البشرية كلها منذ القدم : ترى أثرها في الوثنية (مصر
القديمة والهند والاغريق والرومان) ثم في الاسرائيلية

والاسلام ... ولم يشذ عنها إلا عصر الرهبنة المسيحية في القرون الوسطى حيث طغت فكرة تضحية الجسد من اجل الروح . فأهانوا المادة ... تلك الاهانة التي ما زالت لاحقة بها حتى اليوم . وخلطوا الفضيلة بالزهد .. وخلطوا الرذيلة بالمتعة . وتغير مدلول كلمة « الأخلاق الفاضلة » فى ذلك العصر عن مدلولها فى عصور الحيوية والفطرة . ولم يخفف عصر النهضة فى اوروبا من تلك الفكرة فيما يتعلق بالأدب إلا تخفيفا يسيرا ... فلبث الأدباء والشعراء هناك حتى العصور الحديثة يرون واجبهم فى تحقير المادة والحواس المادية عند الانسان . فى رأيى ان اغفال أى حاسة من حواسنا هو اقفال باب من أبواب المعرفة . إن المعرفة البشرية لا تدخل إلينا من باب العقل وحده . إنما تتسرب إلينا من كل مسام جلدنا وجسدنا وذهننا وروحنا ووعينا الظاهر والباطن . فمن كان يتوق حقاً

إلى المعرفة الكاملة والحقيقة العظمى فليفتح لهنا كل الأبواب والنوافذ ... كنت أود أن احدثك طويلا عن حياتى الجديدة فى طنطا . ولكنى اكتفى اليوم بأن أقول لك انى اقطن النزل النظيف الوحيد فى هذه المدينة . وهو « بنسيون » يحوى من النزلاء ثلاثة من الفرنسيين . وانجليزيا واحدا . واثنين من الألمان . وهم من المدرسين وموظفى البنك . وقد اشتريت جراموفون جديدا . وأحضرت من القاهرة أخيرا « السانفونية السادسة » أى الريفية . وقد كلفتنى مائة وخمسين قرشا . وأوصيت بشراء «التاسعة» وهى فى عشر اسطوانات للشهر المقبل ..؟

طنطا فى . . .

عزيزى اندريه

أشكر لك أقفاص المحار البرتغالى التى أرسلتها إلىّ مصورة على ظهر « كارت بوستال » . انك عرفت كيف تثير منى الذكرى وتجرى من فمى اللعاب . وبعد : فلقد تباطأت فى الكتابة إليك . لأنى بالخبرة والتجربة تبين لى انك ذواقة فى شئون الفكر ، كما أنا كذلك فى شئون الفم ، على الأقل على حد اتهامك اياى . فرسائلى التى لا تعجبك لا تحسب عليك . لهذا آثرت السكوت على الكلام الفارغ . هذا سبب . والسبب الآخر ان حياتى الآن تتعارض

قليلا مع الكتابة . لأنها حياة . وليست بعد تعبيرا عن الحياة . لكن ما أسعدك انت بهذا ... ! هذا كل ما كنت تتمنى لى : الحياة . نعم يا عزيزى اندريه ... انى غارق فى الحياة والواقع إلى اكثر من أذنى . وثق ان التعبير عن هذه الحياة هو مالا أريد الاشتغال به الآن ، حتى لا يقال انى فى وظيفتى القضائية وفى كرسى النيابة انما أقعد على « فوتيل » رقم كذا لأشاهد الحياة مشاهدة النظارة فى قاعات التمثيل . ولن يقول هذا أحد سواك ! وربما مسيو هاب لو علم .! كلا . إنى أعيش الحياة وكفى . فلنترك اذن رواية خبرها للمستقبل . ولنسطر أفكارنا العابرة فقط ، تلك الأفكار الفارغة التى لابد منها لملء رسائلنا . على ان هذه الأفكار قد ذهبت عنى الآن أيضا . ولم يبق منها ما يستحق ان أبعث به إليك . فاعذرنى إذا ألقيت على الورق بكل ما يمر برأسى من خواطر...

اندريه ! يجب ان تعلم ان نافذة حجرتى تشرف على ميدان « الساعة » . ولكى تعرف اهمية هـذا الميدان يكفى أن أخبرك انه فى طنطا بمثابة ميدان « الكونكورد » فى باريس ! . . ومع ذلك فانه ليخجلنى ان أصف لك ما تقع عليه عينى وسط هذا الميدان . لست أعنى البشاعة الفنية التى تقوم عليهـا تلك الساعة الكبيرة . فما لا ريب فيه انه لم يرد فى خاطر أحد أن يقيم فى ذلك المكان شيئـا فنيا على الاطلاق . بشعا كان او غير بشع . انمـا الذى أعنيه هو انعدام كل ذوق وزوال كل لياقة ... فقد أنشأوا وسط الخضرة المغروسة فى قلب الميدان بنـاء ظاهرا وهيكلا بارزا ، يكاد يشمخ على غيره من المبانى بجلال موقعه ... أتدرى ما هذا البناء ؟ انه ليس أثرا تاريخيا ، ولا نصبا تذكاريا ، ولا معبدا فنيـا : انه مرحاض

عموى ! .. ومع ذلك فلا تنس اننا نحن الذين أهدينا إليكم تلك المسلة الرائعة التى عرفتم قدرها فاخترتم لها أرحب مكان فى صدر باريس : وهو ميدان « الكونكورد » ! .. ثق ان لدينا من أمثال هذه المسلة عددا كبيرا ملقى هنا وهناك فى الرمال ... ولكنهم عندنا يفضلون المراحيض ... لأنها فى نظرهم أنفع على الأقل وأجدى ...

آه يا اندريه ! كل يوم تبرهن لى الظروف على أنى كلما دنوت من منطقة الفن والفكر فى مصر أصاب بخيبة أمل ! . . ان روح الجمال والفن لم يحل بعد أو على الأصح لم يبعث من جديد فى أرض مصر الحديثة . من المسئول عن قتل روح الفن فى مصر وقد كانت هى منبع الفن منذ القدم ؟ انى لست من رأى القائلين ان العرب هم المسئولون . ان العرب

ليسوا بهادمى حضارات . انهم طافوا بمدنيات زمانهم يأخذون وينبذون ، ويتخيرون ويتركون ... ولكنهم ما هدموا قط وما حطموا . ان المسئول هم المغول ... ذلك الجنس القادم من أواسط آسيا بلا حضارة ولا مدنية ولا مزية غير مزية الحرب والضرب . اولئك هم الذين حطموا المدنية الاسلامية بما جمعته ونقلته وصقلته من مختلف الحضارات . ان مجرد الاطلاع على تاريخ مصر فى تلك الحقبة للظلمة التى وصفها « الجبرتى » ليكفينا أن نرى إلى أى درك هوت بلادنا المسكينة . بل ان لغة الجبرتى فى ذاتها . وقد كان من خيرة علماء الأزهر وقتئذ ، لأنصع دليل على أن اللغة العربية نفسها قد سقطت فيما سقط تحت سنابك جياد اولئك البرابرة ! .. وخرجنا من هذا الظلام كما خرجت اوروبا من القرون الوسطى . هى ارتمت فى أحضان الاغريق وارتمينا نحن فى أحضان

العرب . وهى سارت فى عصر النهضة من التقليد إلى التجديد . ونحن لم نزل فى طور التقليد . ولعل هــذا يفسر لك أسلوب « المويلحى » الذى حــدثتك عنه ذات مرة . على أن هناك بوادر كما قلت لك، ولا أكثر من بوادر ، تدل على أننــا بدأنا نتحرك نحو عصر نهضتنا . ولــكن السير الجدى نحو هــذه النهضة يتوقف على ثقافة القائمين بها . فنحن نعيش اليوم فى عصر حضارة عظيمة . هى الحضارة الأوروبية . فأى جهل منا بفرع من فروع هذه الحضارة معناه التخلف والقعود . ان روح الحضارة الاسلامية الحقيق كان الطموح إلى الالمام على قدر الامكان بكل الأفــكار والمعارف والعلوم والفنون الشائعــة فى الحضارات المعاصرة لها . ومما لا شك فيه عندى انه لو لم يكن المغول لما تخلفت الآداب العربية والفنون الاسلامية عن نظائرها فى الحضارة الأوروبية القــائمة . لأن

التبادل الفكرى كان دائما قائما بين حضارة الاسلام والحضارات الأخرى . وان من السهل أن نتصور المجرى الطبيعى للمدنية الاسلامية إذا استبعدنا الخطر المغولى . لقد كان فلاسفة العرب متصلين بأوروبا وكانت عقلية العلماء والأدباء فى الممالك العربية متفتحة لتقبل كل تطور تأتى به روح العصور التى يعيشون فيها . فما كان هناك سبب قط يدعو التفكير العربى إلى التخلف عن أى تفكير معاصر يتطور ويتجدد. فاما أن يسير فى موازاته . واما أن يأخذ منه ويعطى، ويؤثر فيه ويتأثر به . ويحدث بينهما ما يحدث الآن بين التفكير اللاتينى والتفكير السكسونى من تفاعل وتداخل وتعانق وتزامل ... فاذا أردنا القيام بعصر نهضتنا جديا فعلينا التشبع بهذه الروح . أما ان نظن النهضة فى مجرد تقليد العرب بالحالة التى وقفوا عندها يوم انهيارهم أمام المغول ، دون أن نلقى بالا إلى

القرون والأجيـال التي انطوت وذهبت وفصلت ذلك العهد عن عهدنا الحاضر بما استجد فيه من علوم وفنون وأساليب حديثة ، فهو حمق وعمى وجهل لو اطلع عليه العرب الأقدمون أنفسهم لسخروا منـه ومنا ... من أجل ذلك كان الشرط الأول ، في نظري، هو الثقافة التامة ... نعم : ينبغي لنهضتنا رجال من طراز رجال عصر النهضـة في اوروبا : رجال موسوعيون يحيطون بكل ثمرات الذهن ونتاج العبقرية في الحضارة المعاصرة لهم والحضارات السابقة عليهم ولـكن مع الأسف ... اغلب رجال الفـكر والأدب عنـدنا لا يريدون أن يلموا بأكثر من المـادة اللفظية التي تمكنهم من تدبيج للمقالات التي يحتذون فيهـا النماذج العربية القديمة . تصوروا ان كاتبا مثل «المويلحي» نزح إلى اوروبا هو الآخر مثـل كثيرين من أدباء عصره ... لـكن عبثـا نحاول أن نلمح في آثاره أو

آثارهم ما ينم عن معرفة او تذوق لفنون اوروبا .
انى لأتساءل : أكانوا يسيرون هناك معصوبى الرأس لا يبصرون ولا يسمعون ؟! .. ما الذى كان يصد عيونهم عن آداب تلك الأمم الحية وهى معروضة فى الطرقات تصيح من واجهات المكتبات ؟! .
وما الذى كان ينيم أرواحهم فلا يفطنون إلى جمال الهياكل وآثار الفن . القائمة هناك فى كل مكان ، تكاد تصفع بسحرها البصائر والأبصار .. ولا تدع ذا فهم وذوق حتى تبعث فيه النشاط إلى الاطلاع والاغتراف من كل ينبوع من ينابيع الفكر والروح .
يخيل إلى ان « الحريرى » نفسه لو بعث من قبره ووضع هناك لما طال به الأمد عن التنبه والتفطن والانتعاش والانتفاع بكل ما ينبض حوله من مظاهر الحضارة الحية القائمة . ان العرب كانوا ذوى يقظة وفطنة وإحساس وتأثر بكل ما جاورهم وعاصرهم من

مدنيات . ان أدباء هـذا العصر لمن طراز غريب . إنهم لا يمكن أن ينسبوا إلى العرب . حتى وان أجادوا تقليد أساليبهم . انهم فى رأيى طراز قد طعم بالروح المغولى . ذلك الجنس الذى يقلد ولا يبتكر ، ويسيطر ولا يبصر . ذلك الجنس الذى استطاع أن يبلغ اسوار « فيينـا » . ويتوغل فى اوروبا دون أن يرى شيئا من تقدمها الذهنى . ودون أن ينتفع بشىء من حضارتها الفكرية . كل مجد المغول فى الحرب . وكل فهم تقليد بعض ماوقع فى أيديهم من الأساليب العربية تقليدا ضيقاً . وكل فكرهم حفظ بعض النصوص الاسلامية حفظا مغلقا . . . وهكذا ورث تلك العقلية المغولية أدباء العربية فى هذا القرن . فلم يروا شيئا ولم ينتفعوا بشىء غير ذلك . ولم يخرجوا عن نطاق تلك الدائرة المقفلة . حتى الفكر الاغريقى الذى اتصل به العرب وتفقهوا فيه وكشفوا للعالم عن

مراميه ... هو أجنبي عنهم . ومن باب أولى الأدب الاغريقي وهو أعقد من الفلسفة الاغريقية وأعسر ، لأنه متصل بالفنون الأخرى اتصالا وثيقا . خذ المآسي الاغريقية مثلا . محال ان ينفذ إلى لبها وروحها من ليست له دراية ، لا بفلسفة الاغريق وحدها ، بل بكل أساطيرهم وفنونهم من النحت إلى الرسم على الأواني . لا أمل لنا كما ترى في تجديد الأدب العربي إلا بالاطلاع الواسع والثقافة الشاملة . إن تربية أهل الأدب في مصر حتى مطلع هذا العصر هي تربية لغوية ، قوامها الكتب . ثقافتهم الكتب وحدها . بها نشأوا وعليها وحدها اعتمدوا في تكوين ملكة الانتاج . هل يمكن ان نجد كاتبا اوروبيا يعتمد في تكوين ملكاته الخالقة على الكتب وحدها ؟ .. هل يوجد أولا مثل هذا الكاتب في اوروبا ؟ وإذا وجد هل يستطيع أن ينتج هذا الانتاج الذي نراه

يرتكز على فن متين التركيب أصيل التفكير . ان التربية الكاملة الشاملة لمختلف الفنون منذ الصغر هى التى تنمى عند الأديب الأوروبى ذلك الاحساس بالتناسق الفنى الذى يرفعه إلى هذه المرتبة من مراتب الخلق والابداع . وإذا سألتنى عما أعنى بالتربية الكاملة فانى أقول لك : هى تربية جميع الملكات والحواس مجتمعة . فتربية ملكة العقل وحدها لا تكفى عند رجل الأدب والفن ان لم تصاحبها تربية حاسة البصر وحاسة السمع ... وحتى حاسة الشم والذوق . . . التربية الكاملة للحواس والملكات هو ما أسميه « الثقافة الكاملة » . لا ينبغى لأديب او فنان أن يترك حاسة من حواسه مهملا بغير تكوين ، عاطلة لا تؤدى عملا . يجب أن يعلم منذ الصغر ان لكل حاسة « آداب لغتها » . وان عليه أن يحذق « آداب اللغات » جميعها لكل حاسة من حواسه .

فكما ان آداب لغة العقل والفكر تقرأ فى الكتب والمكتبات . فان آداب لغة العين تشاهد فى المتاحف والمعارض والهيا كل والآثار الفنية والمناظر الطبيعية. وان آداب لغة الأذن توجد فى قاعات الموسيقى والتمثيل والغناء . وان آداب لغة الشم فى العطور الجميلة ... ولغة المذاق فى المآكل اللذيذة ... الخ ... يجب أن يعلم الأديب والفنان ان من واجبه ان لا يجهل قط وجود « الجمال » الاسمى عند كل حاسة من حواسه وان هنالك عباقرة قد استطاعوا التعبير عن هذا الجمال... وتمكنوا من استخلاصه واستصفائه وصبه فى قوالب فنية رائعة : هى الكتب والصور والتماثيل والمعابد والسانفونيات والأوبرات والأناشيد والتمثيليات والأشعار والأزهار الخ ... ماالفنون المختلفة بآثارها الباقية إلا « آداب لغة » كل حاسة من حواسنا . . فعلينا أن نلم بتاريخ أدب هذه اللغات ، وأن نتذوق

أجمل نصوصها فى كل ناحية من نواحيها ، وأن لا نقصر التفاتنا على أدب دون أدب . فنظن الجمال فى آداب لغة العقل وحدها ، أو آداب لغة الفكر ... انما يجب أن نعلم ان لكل حاسة عوالم من الجمال لا نهاية لها ... وانه ينبغى لنا ، إذا أردنا الارتفاع بآدميتنا . أن نسمو إلى تلك العوالم وأن نجوس فى أرجائها الواسعة . مهتدين بقيادة عظماء الفنون الذين طافوا بها قبلنا واستكشفوا قممها وغاصوا على كنوزها .. نعم . . لكل حاسة وملكة صحائفها الرائعات فى تاريخ العبقرية الانسانية الخالقة : ولابد من الاطلاع عليها جميعا لمن يريد أن يضع يده على اسرار الخلق فى الأدب والفن ... تلك هى التربية الكاملة والثقافة الشاملة التى أراها ضرورية لأدباء عصر النهضة . وإذا كان الأدب العربى فى هذا القرن واقفا عند تلك المرحله البدائية ، فذلك لأن أكثر

الأدباء لم يتلقوا بعد هذه التربية الكاملة التى تؤهلهم لتحمل أعباء الخلق الفنى الكامل ...

•

البارحة كنت فى القاهرة وحضرت حفلة غناء شرقية . فرأيت عجبا .. ! الحاضرون هم ولا شك من أهل القرن العشرين . ولكن الموسيقى هى من غير شك موسيقى القرن العاشر ! ..

أخفيت عنك يا اندريه انى كتبت منذ عام وأنا فى الاسكندرية شيئا كالقصة التمثيلية بنيته على سورة من « القرآن » ... وجرفتنى المشاغل فتركت هذا العمل فى حقيبة لى . وكدت أنساه . لو لم أفتح الحقيبة عفوا منذ أسبوع ... قرأته أو على الأصح قرأت حوار البطل والبطلة . وكانت إحدى مقطوعات « بيرجنت » لأبسن فى موسيقى « ادوار جريج »

الجميلة تتصاعد من الجراموفون . . . يا للمفاجأة ..! ؟
أأنا الذى كتب هـذا المنظر ؟ لقد غمرنى يا اندريه
جو شعرى . لست أدرى بعـد أمبعثـه القصة أم
الموسيقى . لقد تأثرت حقا من هذا الحوار الغرامى !
لأول مرة أتأثر لشىء خطته يدى . حبذا لو أستطيع
أن أترجم لك هذا المشهد ، لترى معى هل أنا واهم أو
مصيب ؟ .. أما بقية العمل فلم أجد فيه ، للأسف ،
ما هز نفسى ... »

طنطا فى ٨ يوليو . . .

عزيزى اندريه

ما أعظم سرورى برسالتك التى جاءتنى على غير انتظار . فكم طال بنا الصمت . وبى رغبة شديدة فى طول الحديث معك . ولكنك تغيرت قليلا يا اندريه، وانكمشت صحائفك وندرت رسائلك مما ينذرنى بشر مستطير ! عهدى بك سيال القلم . ولا شك لديك ما تقول لى وتمسكه عنى قسوة منك . ألا قاتل الله صحبتك ! أما قولك انك بدأت تكتب فوجدت الرسائل سخيفة فآثرت السكوت . فهو عذر لا يبديه مثلك لمثلي . ألا تخجل ؟ انى لا أطلب إليك أن تقوم

بانشاء رسالة بالمعنى الأدبى للكلمة . ولعلى كنت كذلك ذات يوم ولم يشفنى من ذلك الداء غير مصارحتك اياى يوما بأن بعض رسائلى تنفعك « للف » الحوائج الصغيرة من أزرار قمصان إلى مواسى حلاقة ! اذن ما معنى كلمة السخف عندك ، انت الذى لا يعجبنى منه سوى رسائله التى لا معنى لها . وصفحاته التى يخلط فيها الحابل بالنابل . ولا يتحرج أن يستعمل ألفاظ «أباش» مونمارتر وأوباش مرسيليا! انه ظلم . اقسم انه الظلم بعينه : أن أكتب إليك أنا كل هذه الرسائل ، مع ما أنا واقع فيه من عمل مهلك . ان مجرد وصف عملى ومقداره خصوصا فى فصل الصيف ليحتاج إلى إفراد رسالة طويلة . تصور انى أعمل بدل ثلاثة من الزملاء . إذ ليس لى أجازة هذا العام . أو الأصح انى نزلت عنها للآخرين شهامة منى أو حماقة . البرنامج اليومى كالآتى :

عمل فى دار النيابة من الثامنة صباحا إلى الثالثة بعد الظهر . ومن الخامسة مساء إلى الثامنة: لتحقيق التلبس وقضايا المكتب . هذا عدا القيام لضبط الحوادث الليلية ! نعم ، ذلك ان وكيل النيابة فى مصر هو مخلوق فريد فى نوعه فى عالم المخلوقات القضائية . فهو يقوم بعمل النيابة وقاضى التحقيق معاً وفى نفس الوقت . بالمعنى المعروف لهذين العملين المنفصلين فى فرنسا وانجلترا ودول الأرض قاطبة . لذلك ترانى عدا عمل النهار الشاق أقوم كل ليلة تقريبا لأضرب فى كل طرف من أطراف مديرية الغربية ، حتى ضجت بالشكوى مدام « بلانشان » صاحبة البانسيون . وضج معها النزلاء : من طرق الخفراء ليلا على الباب لايقاظى : وضججت أنا بالطبع وأصابنى الأرق والسهاد ! كل هذا أيضا عدا الجلسات . أتدرى كم جلسة علىّ حضورها فى الأسبوع ؟ أربع

جلسات . وهـذا أيضا خلاف الايراد اليؤمى وهو لا يقل عن خمسين ملفا تحوى قضايا من كل لون وصنف : جنح ومخالفات وعوارض وشكاوى ادارية ، يجب فحصها وقيدها وتقديمها للمحكمة أو حفظها ... كل ذلك في يوم ورودها ! لقد قلتها ذات مرة في صيحة وأنا أكاد أجن : ان وظيفة وكيل نيابة مصرى هى أشق عمل فى العالم كله .. ولا يستثنى من ذلك إلا عمل جندى الخنادق فى الحرب العظمى !

ولننتقل إلى حديث الأدب . آه ما أشهى كلمة «الأدب» بعد كل هذه «المرمطة» ! إنى لا أملك وقتا لتذكر هذه الكلمة . لكم أعجب الآن إذ كنت فى يوم من الأيام خاليا إلى حد انفاق الوقت فى تخيلى ما وراء الكتب . كم من الساعات أضعت فى الجلوس جامدا بمشارب حى « جامبتا » أنظم الأرض والسماء من جديد ، وأعيد بناء العالم طبقا لتصوراتى

ومثلى العليا لو كنت أعلم ما ينتظرنى ها هنا ..؟! لو كنت أعرف أن هذا هو المصير لكنت أشبعت نفسى لهـوا ومرحا فى باريس ، ولاقتصدت فى كل شىء وأرحت نفسى بعض الراحة من ذلك العناء ! آه لتلك الحمى الخبيثة التى كنت مصابا بهـا . تلك الحمى التى أضاعت علىّ كل ما كان يمكن أن يظهر من صفات طيبة . الآن شفيت ولله الحمد.وهاأنت ذا ترانى شخصا غير متعجل شيئا ، مستسلما للحياة والقدر ، فليصنعا بى ما يريدان !

تسألنى عن الرواية التى حدثتك عنها فى رسالتى السابقة ؟ انها ليست عصرية ولا تاريخية . ولا حتى قصة تمثيلية حقيقية . بل . . . بل . . لست أدرى ربما كانت عملا فنيا يقوم على « الحوار » لا أكثر ولا أقل . حوار أدبى للقراءة وحدها . فان وضعها للتمثيل لم يخطر لى على بال . ان كلمة « التشخيص »

التى عرضتنى للاهانة فى بدايتى الأدبية ما زالت ترن فى أذنى... كلا . ان هدفى اليوم هو أن أجعل للحوار قيمة أدبية بحتة ليقرأ على أنه أدب وفكر . هذا العمل على كل حال لا يخرج عن كونه Transposition artistique لسورة قرآنية ترتل فى المسجد يوم الجمعة . على أنى لا أكتمك انى ساعة كتبتها لم أكن تحت تأثير القرآن وحده . بل أيضا تحت تأثير مصر القديمة . لقد كنت قرأت الكتب الدينية : كتاب الموتى والتوراة والأناجيل الأربعة والقرآن ان مصر القديمة كلها كانت واقعة تحت سلطان كلمة واحدة ملكت عليها فكرها وقلبها وعقائدها ومشاعرها : البعث . وهى كلمة ذات أربعة أوجه كالهرم : وجهها الأول : الموت . ووجهها الثانى : الزمن . ووجهها الثالث : القلب . ووجهها الرابع : الخلود . . .

هـل أنا على حق فى تفسير الـكتب السماوية تحت ضوء مصر القديمة ؟ ومن منها أصل الأديان ؟

إذا كانت الأديان السماوية هى الحق ، فلابد أن تكون قديمة قدم الحق ، أوعلى الأقل قدم الانسان. الأنبياء اذن لم يخلقوا الحق خلقا بظهورهم . ولكنهم كشفوا عن وجوده الأزلى . فلا غـرابة اذن فى البحث عن منابع الأديان السماوية فيما كان قبلها من وثنية ، والبحث عن منابع الوثنية فى قلب الانسان من يوم ظهوره على الأرض : . .

لو كان المسكين ايفان حياً لناقشى فى كل ذلك بما يملأ أسفارا ...على اى حال : لاتشغل بالك كثيرا بروايتى هذه . فهى ليست عملا ذا بال . ولا احسبها تمتاز عن مخطوطاتى السابقة فى كثير أو قليل . إلا أن تـكون هى أول عمـل أردت أن أستوحى فيه « الـقرآن » كما أردت قبل ذلك استلهام « الف ليلة

وليلة » و « المجتمع » المصرى قبيل الثورة .. الخ ... وبعد . فما من جديد فى حياتى هنا ، على أنى لا أريد أن أختم هذه الرسالة قبل أن أخبرك أنى سعيد لتشرفى بمعرفة « موزار » معرفة أوثق عرى من تلك المعرفة السريعة العابرة التى بدأت فى باريس . فلقد هبط « البانسيون » رجل انجليزى من نوع Bidlake أو Burlap فى قصة هكسلى ؛ وأتى معه « بألبوم » اسطوانات السانفونيات رقم ٣٩و٤٠و٤١ و«سوناتا» رقم ١٠ فسرعان ما تعارفنا بالطبع ... وصرنا نتبادل الاسطوانات . أنا أعيره بيتهوفن وهو يعيرنى موزارت . آه أى جمال وأى سعادة أن تعيش بجوار هذا الطفل الآلهى : موزار ! .. ؟

طنطا فى . . .

عزيزى اندريه

مضت شهور ولم أتلق منك كلمة واحدة . ماذا بك ؟ ماذا حدث لك ؟ انى مع ذلك لا أستطيع أن أكف عن الكتابة إليك . إلى من غيرك أفضى بهواجسى . أريد أن أتنفس وأتكلم وأجد انسانا يصغى إلى حديثى . إلى ذلك النوع من الحديث الذى لا أجرؤ على الاشارة إليه فى بيئتى القضائية . الويل لرجل القضاء الذى يستكشف زملاؤه فيه انه أديب . ان لنا مجلسا يضمنا كل مساء فى قهوة نظيفة فلا نتحدث فى غير تصرفاتنا اليومية فى القضايا . فمن

ظهرت عليه بوادر الفكر فى حديثه أو عوارض الفلسفة فى خواطره حلقوا فيه ثم تهامسوا « اتركوه هذا أديب ... سامحوه هذا فيلسوف .. » وذكروها له وعدوه بعد ذلك ممن لا يوثق فى تقديراتهم أو تصرفاتهم القانونية . فاذا لم يجدوا مطعنا فى عمله فهم على الأقل متبرمون به وبحديثه . ولن أنسى ذلك الزميل الفاضل قاضى المحكمة الكلية الذى كان مشغوفاً بالتاريخ الاسلامى ... وعلى الأخص تاريخ الفاطميين. لقد كان فى الواقع واسع الاطلاع فيه .. طلى الرواية له . فلم يتركه زملاؤه يتحدث فى هذا الموضوع قليلا حتى انصرفوا عنه . وصاروا بعد ذلك كلما أقبل عليهم هذا الزميل نهضوا متهامسين : « هلموا بنا ... هلموا بنا ... صاحب الفاطميين حضر ! » فما كان يمكث فى استقباله والاستماع إليه غيرى أنا . فلقد كنت حقاً أجد عنده حديثا يسرنى ويلذ لى . .

وتكرر هذا الأمر حتى كدت اتهم انا أيضا ويذكر اسمي معه في معرض التندر والسخرية ! .. وجاء يوم كادت تقع فيه كارثة : فلقد هبط المدينة قاض كان من زملاء دراستي بمدرسة الحقوق في القاهرة . وقيد اسمه معي بجدول المحامين في يوم واحد ... وشهد انصرافي بعدئذ إلى التأليف المسرحي . وحضر تمثيل بعض رواياتي ... فما كاد يراني بين الحاضرين في المجلس حتى اتخذ مكانه بجواري .. وهو يصيح بي : « اين انت واين لياليك ورواياتك التي كانت منذ عشرة أعوام تملأ المسارح ! » فحملق فيه رئيس المحكمة ورئيس النيابة وكانا — لسوء حظي — بين الحاضرين ...وقالا : « يعني ايه ؟ ! كان في التشخيص ؟! » فغمزت صاحبي . . فنظر إليّ ورأى في عيني آيات التوسل والألم والضراعة . ففهم الموقف وأدرك غلطته وحاول اصلاحها قائلا : « لا .. قصدى انه كان يميل

إلى مشاهدة التمثيل فى ليالى الفراغ » .. ثم انفردت به أفهمه ان ذلك الماضى قد دفن . وانى الآن من أعضاء الأسرة القضائية المشهود لهم بحسن السمعة . فاياك ان تلصق بى كلمة « أدب » او كلمة « فن » او حتى كلمة « فلسفة » .. ! أرأيت يا اندريه فى اى عالم اعيش الآن ؟ هل كنت تصدق ان ذلك يحدث لى ؟ ... أأدركت الآن مقدار حاجتى إليك وإلى الهمس بالحديث معك من خلال قضبان حياتى الحاضرة . ؟ ! اكتب إلىّ ... اكتب إلىّ ... اخبرنى بأحوالك كلها ... كيف حال « جرمين » ؟ وكيف حال الصغير « جانو » ؟ فى اى مدرسة هو الآن ؟ انى اتخيله دائما طفلا صغيرا يلعب بسيفه الزائف ومدفعه الصفيح ... ؟.

دسوق (غربية) فى . . .

عزيزى اندريه

وا أسفـاه ! .. مضى عام وانا لم ازل فى انتظار رد منك . رد صغير ينبئنى بأن الحبل بيننا لم ينقطع يظهر انه انقطع .. ذلك الحبل الذى كان يربط احدنا إلى الآخر ونحن هائمان فى جليد ذلك القطب « الفكرى » المرتفع ! .. ترى اين انت الآن ؟ اتركتنى وحدى وذهبت عائدا إلى المجتمع ؟ .. هل فعلت ذلك ؟ اما انا فانى أقاوم ... اقاوم بكل ما لدى من قوة وعزم ... انى اكتب إليك الآن من مدينة صغيرة على النيل .. تدعى « دسوق » . هى مع ذلك مركز من اهم

مراكز القطر . لقد اسندوا إلىّ اعمال نيابتها . فوجدت نفسى أمام عمل هائل من الكثرة والخطورة. ان قاضى المحكمة لا يقيم فى المدينة .. فهو يحضر جلستيه ويذهب . وبهذا صرت أنا الرئيس المسئول عن شئون النيابة والمحكمة معاً ... لقد تبين لى بعد أسابيع قليلة انى أنا الرئيس المتصرف فى هذه المدينة كلها ... فالبوليس والادارة والصحة والهندسة والرى والزراعة ... وكل فروع الحكومة المختلفة تصب مشاكلها بين يدى .. حتى فيما لا يقع تحت طائلة القانون وما يكتفى فيه بالنصح والارشاد والمصالحة والتوفيق واقرار النظام بالحسنى ... كل ذلك يحتاج إلى رأيى ولكلمتى فيه المقام الأول ... لقد شعرت حقاً بعبء المسؤولية .. فدفعنى ذلك إلى العمل المضنى . لقد وضعت نظاما دقيقا للعمل لا انحرف عنه قيد شعرة . انى أعمل نهارى كله .. من الصباح

حتى الثانية بعد الظهر .. ومن الرابعة حتى السابعة .. فأخرج للنزهة ساعة فوق جسر النيل . . . تلك هي الساعة التي تسمح لي فيها تبعاتي أن أتحرر قليلا لأعود إلى نفسي وذكرياتي .. في تلك الساعة الهادئة أسير وحدي فوق الجسر أتأمل الأمواج في اصطفافها الخافت ... فتلعب في رأسي الأفكار القديمة من جديد . . أفكار الفن والأدب . . فالتفت حولي حرصاً عليها من مفاجيء .. فلا أبصر غير الخفير النظامي يحمل بندقيته ويتبعني عن بعد . . ليبلغني بما يرد من اشارات مستعجلة .. حتى إذا خيم الظلام عدت إلى مسكني فتناولت العشاء ثم نظرت في بعض ملفات القضايا .. ثم آويت إلى فراشي في انتظار ازعاجي نصف الليل ببلاغ عن وقوع جناية . لقد أحصيت عدد الليالي التي انتقل فيها إلى حوادث جنائية في هذا المركز .. فاذا هي في المتوسط خمس

ليال .. اى انى لا أظفر بأكثر من ليلتين فى الأسبوع أقضيهما نائما فى فراشى كما ينام الآدميون .. انى أؤدى واجبى دون تذمر . وانهض باعباء عملى القضائى بأمانة وهمة واستقامة ألحظ أثرها الحسن فى مكاتبات الرؤساء الرسمية . انهم يثقون فى تصرفاتى ثقة تملؤنى فخرا . هل كنت يا اندريه تتوقع نجاحى كوكيل نيابة ؟ ولا انا ما كنت أتوقع لنفسى ذلك . لقد ثبت لى انى رجل أمين لايعرف الغش فى شروط اللعب . انى فى الفن كنت الفوضى بعينها . ولكنى فى عمل القضاء انا النظام بعينه . بل انى مبالغة فى الغيرة على سمعة هذا المنصب لا أختلط بالأعيان ولا برجال الادارة ولا بأى شخص أكثر من الاختلاط الذى يدعو اليه العمل الرسمي .. لطالما سمعت بأخبار زملاء قضائيين — لم يتصلوا يوما بفن ولا بفنانين ومع ذلك لم يبالوا ، فكانت لهم فى مراكز أعمالهم

سهرات « بوهيمية » ومغامرات نسائية .. تركت أثرا فى صحائف خدمتهم لا يمحى . أما انا فصحيفتى نقية بيضاء .. ولقد التقيت ذات مرة بالنائب العام فقال لى انه يعدنى من خيرة وكلائه عملا واستقامة وسمعة . فأنا اذن يا اندريه كما ترى ... أسير بخطى ثابتة نحو الاطار النهائى الذى يريد أن يحبسنى فيه المجتمع .. ماذا بقى لى من الفن والفنان بقبعته السوداء ذات الاطار العريض ؟ ! .. كنت منذ أشهر بالقاهرة فقابلنى أحد زملاء الدراسة يشتغل الآن بالتجارة ، ولا يعرف من أمرى شيئا .. فما ان تفرس فى وجهى وهيئتى حتى قال لى : « ماذا تعمل فى الحياة ؟ لابد انك من رجال القضاء ؟ ! » فدهشت وسألته : « كيف عرفت ؟ » فقال لى : « شكلك وهيئتك وسيماؤك » ! .. عجبا .. أهكذا المهنة قد طبعتنى بطابعها .. ورن عندئذ فى أذنى صوت : «ايما دوران»

يوم قابلتنى أول مرة وتفرست فى وجهى قائلة لى : « ماذا تعمل ؟ لابد انك فنان فى موتزارتو ! » .. وا أسفاه ! . مات ذلك الفنان .. وحلت روحه فى جسد رجل قانون ! .. أترى الفنان يا اندريه يبعث من موته يوما ؟ .. ولكن كيف ؟ كيف يحدث لى ذلك ها هنا .. كيف يحدث ذلك لقضائى منظور إليه نظرة الرضا والاحترام .. كيف السبيل إلى الفن الآن .. والمجتمع كما ترى قد هيأ لى مكانا فى أحضانه لا أستطيع منه فكاكا ... أندريه ... أندريه ... أخشى أن يحطمنى المجتمع ... يحطم الفنان فىّ ... ربما كان قد حطمنى وكسرنى ... ولكنى أقاوم ... منذ أسابيع وأنا أتلقى من أهلى خطابات يغروننى فيها بالزواج .. ويذكرون لى أسماء لامعة فى الثروة والجاه .. ويتهموننى بالحمق والغفلة والعته إذا خامرتنى فكرة الرفض ... ويظهر ان كل شيء قد

أعد . وان أصحاب هذه الأسماء قد قبلوا . فالمناصب القضائية - شأنها فى مصر شأن فرنسا - مزيتها الكبرى هى سعرها الممتاز فى سوق الزواج . فماذا تقول فى ذلك ؟ انهم ينتظرون قبولى .. يكفى يااندريه أن ألفظ كلمة « نعم » ليضع المجتمع اصفاده فى يدى الأخرى الطليقة ، ويجرنى نهائيا إلى المصير المحتوم . لقد قلت لهم « لا » بأعلى صوتى .. وهم مشدوهون لا يعرفون السبب . « لا » ... تلك هى الصيحة الأولى لمقاومتى اليائسة .. يجب أن أقاوم وأن أجاهد .. أليس كذلك يا اندريه . أأرضى ان تطوينى الحياة وترغمنى على مالا أريد .. فيم كان اذن جهادى الطويل فى سبيل الفن ؟ فيم كانت الأعوام الطوال التى أنفقتها قراءة واطلاعاً وتحصيلا وتكوينا وممارسة لألوان الفن وأنواع العلم وفروع المعرفة .. لقد اردت ان اكون كاتبا وسأكون .. ولكن .. ولكن كيف

يا صديقى اندريه ؟ انى أخط إليك هـذا السؤال بصوت مرتفع فى سكون هذا الليل .. تحت هـذا المصباح الضئيل المستيقظ انتظارا لجرائم النـاس . كيف السبيـل يا اندريه ؟ انك تعلم انى عملت وجهدت لامتلاك ناصية فنى .. ولم اكتف ببدايتى الأولى منذ عشر سنوات .. فتناسيتها ... وانطلقت من جـديد أكتب وامزق وأكتب وامزق .. ولم يسلم من التمزيق اخـيرا سوى تلك المخطوطات التى حدثتك عنهـا .. اظن انى قد أعددت نفسى اعدادا كافيـا .. واظن انى قد جاوزت السن التى يحسن فيها بأديب او فنـان ان يظهر نهائيا ليغرس قدمه فى ميدان فنه . ويعرض ثماره على اهل وطنه.. ولـكن مع ذلك .. أنا فى شك يا اندريه . من ادرانى ان فنى يستحق النشر الآن ؟ لم لا تقول انى متسرع. لطالما تسرعت من قبل . الا يحسن بنا التريث ؟ قد

تسألني الى متى ؟ لست ادرى إلى متى ان الفن حقا طويل . وإذا تريثت اكثر من ذلك فسأظل طول حياتى اتريث واتشكك . ولكن من جهة اخرى إذا اخرجت للناس شيئا تافها . فماذا يكون جوابك ؟ ان الانتظار إلى آخر العمر لأهون على نفسى الآن من اخراج عمل فنى ناقص . انى لم اعد الشاب الطائش الذى كنت تعرفه فى باريس ... انى الآن أكره العجلة . وابغض النشر لمجرد النشر . واقدس الفن حقيقة . وانزه اى عمل فنى عن الظهور مادمت ارتاب فى أمره بعض الارتياب .. كلا .. فلنبق كما نحن يا سيدى . وحسبى ان انظر فى مخطوطاتى من حين إلى حين .. لأستخرج فى كل مرة نقصا جديدا . قد تدهش إذا قلت لك انى صححت وعدلت وبدلت فى كل مخطوطة ، وقمت « بتبييضها » ونسخها بنفسى اكثر من أربع مرات . اجل يا اندريه .

لكل مخطوطة عندى كبرت او صغرت أربع نسخ version مختلفة بخط يدى .. على أننا إذا طرحنا جانبا مسألة النضج الفنى لعملى وهل تم قليلا او لو يتم ؟ .. ومسألة الاقدام او التريث وأيهما الأصوب ؟ ومسألة الثقة او الارتياب وايهما الأرجح . فان هنالك مسألة أخرى يجب ان لا تغيب عن خاطرك : المجتمع الذى حولى الآن .. كيف السبيل إلى الخروج من إطارى القضائى ؟؟ . كيف أنشر فنا دون أن اتعرض لسخرية الزملاء وخيبة أمل النائب العام وفجيعة الأهل والخلصاء ... آه يا اندريه معذرة ! .. انى افكر الآن تفكيرا سخيفا ... هذا كلام غير خليق بفنان ! .. ولكن هل أنا فنان ؟ . . أتراها القبعة السوداء هى التى كانت تملأ رأسى بهذه الأوهام ! لقد خلعتها كما تعلم منذ زمن بعيد .. وها انذا اليوم اتشح بالوسام الأحمر الأخضر ..

ولم أعد اسمع احـدا ينعتنى بالفن . ربمـا قلت لى : يكفى ان تصغى إلى الصوت الصاعد من أعماق نفسك ! .. أجـل يا اندريه .. ولـكن نفسى الآن ينخر فيها الشك . وما عدت اصدق لهـا كلاما ؟ واخجلاه ! .. لست ادرى كيف يتـكلم هـذا الـكلام رجل يتشبث بالفن .. حقـا .. يجب ان أومن بالفن ... الايمـان بالفن هو « التعويذة » التى تفتح لى الطريق .. انى أومن بأبولون .. أومن بأبولون إله الفن الذى عفرت جبينى أعواماً فى تراب هيكله ... انه ليعلم كم جاهدت من أجـله وكم كافحت وناضلت وكددت ! باسمه أخوض المعركة الكبرى وأنازل كل مجتمع وكل حياة وكل عقبة تحول بينى وبين فنى الذى منحته زهرة أيامى التى لن تعود ... ؟



كتب توفيق الحكيم

التي نشرت في اللغة العربية

محمد	الطبعة الاولى : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية : مطبعة المعارف عام ١٩٣٦
شهرزاد	(مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤
أهل الكهف	الطبعة الاولى : (مطبعة مصر عام ١٩٣٣) الطبعة الثانية : (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣) الطبعة الثالثة : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠)
عودة الروح في جزئين	(مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣)
أهل الفن	(مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)
مسرحيات توفيق الحكيم	المجلد الأول : ويشمل قصص : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة في القلب ، جلسنا اللطيف ، (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التى نشرت بالعربية

القصر المسحور	بالاشتراك مع الدكتور طه حسين بك (مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦
مسرحيات توفيق الحكيم	المجلد الثانى : ويشمل قصص : الخروج من الجنه أو الملهمة أمام شباك التذاكر . الزمار . حياة تحطمت . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
يوميات نائب فى الأرياف	الطبعة الاولى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧ الطبعة الثانية مطبعة مصطفى البابى الحلبي واولاده بمصر عام ١٩٣٨
عصفور من الشرق	الطبعه الاولى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨ الطبعة الثانية مطبعة التوكل عام ١٩٤١ الطبعة الثالثة مطبعة التوكل عام ١٩٤٣
تحت شمس الفكر	الطبعة الاولى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨ الطبعة الثانية مطبعة التوكل عام ١٩٤١

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التى نشرت بالعربية

تاريخ حياة معدة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨

عهد الشيطان
الطبعة الاولى
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨
الطبعة الثانية
مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

براكسا أو مشكلة الحكم
مطبعة التوكل عام ١٩٣٩

راقصة المعبد
الطبعة الاولى
مطبعة التوكل عام ١٩٣٩
الطبعة الثانية
مطبعة التوكل عام ١٩٤٣

نشيد الأنشاد : مطبعة مصر عام ١٩٤٠

حمار الحكيم
الطبعة الاولى
مطبعة التوكل عام ١٩٤٠
الطبعة الثانية
بمطبعة التوكل عام ١٩٤٢

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التي نشرت بالعربية

سلطان الظلام: الطبعة الاولى مطبعة التوكل عام ١٩٤١ — الطبعة الثانية مطبعة التوكل ١٩٤٢

من البرج العاجي : مطبعة التوكل عام ١٩٤١

تحت المصباح الأخضر : مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

بجماليون : مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

سليمان الحكيم : مطبعة التوكل عام ١٩٤٣

زهرة العمر : مطبعة التوكل عام ١٩٤٣

كتب توفيق الحكيم

التى نشرت فى لغة أجنبية

شهرزاد	ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الاكاديمية الفرنسية .
عودة الروح	ترجم ونشر بالروسية فى ليننجراد عام ١٩٣٥ . وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ .
يوميات نائب فى الأرياف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ بمقدمة للدكتور حافظ عفيفى باشا . (طبعة اولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية)
أهل الكهف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت مدير دار الآثار العربية .
عصفور من الشرق	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٦٦٥٨/١٩٩٨

I.S.B.N 977- 01 - 5761 - 9





ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان، بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العا... ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى ... وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر ال... التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سو...



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

الأعمال ... خيـ...



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب